رواية

الهدَّام

موسى النقيدان

مدارك

تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

الهدام

(1)

{ رواية }

الهدام

الفصل الأول

(يا وي.. وي.. وي) قالها صيّاح بصوت خافت عشية منتصف الوسم سنة 1376هـ التي يطلقون عليها في بلدة الحفرة "سنة الهدام" لكثرة ما سقط من بيوت بسبب هطول الأمطار، وقد استمرت أربعين يوماً طيلة أيام الوسم.

كثير من أهل الحفرة هجروا منازلهم خوفاً من سقوطها على رؤوسهم، تلك البيوت المبنية من الطين والمسقوفة بالخشب والجريد، التي لا تستطيع أن تقاوم هذه الأمطار العنيفة التي اتجهت إلى بيوت الصحراء القاحلة.

بيت صيّاح أصبح في خطر، ظل يقاوم عشرين يوماً وليلة ولكن انجراف السطوح الطينية أدى إلى تعرية الغرف تماماً، وعجز عن الصمود، إنه ظل يقاوم كجبل، إن تلك الليلة المخيفة جعلت صياحاً مضطرباً تماماً وأحس بأنه ينهزم.

جميع الفقراء والمطحونين هجروا تلك المنازل الضعيفة منذ وقت مبكر من هطول الأمطار، ولم يبق إلا الذين يشعرون بأنهم شيَّدوا قلاعاً حصينة تقيهم خيانة الأيام، ولم يدر بخلدهم أن الصحراء لا يهزمها أحد من البشر.

خاف صيَّاح تلك الليلة المرعبة وهذا الليل الأسود، والمصير المجهول،وبدأ يساوره القلق على أولاده، وعلى من تبقى من أهل الحفرة، حاول أن يفكر بعمل ما ولكنه لا يعرف من أين يبدأ.

وتذكر أيضاً أنه في ورطة ولا يستطيع أن يقوم بأي عمل، فالأجواء لا تساعد، واليد خاوية، والليل طويل.

عندما ألقى نظرة على السماء لعله يستطلع خبراً أو يرقب حلاً، انسحب إلى الداخل، وعاد إلى مجلسه بجانب النار والقهوة، وأصبح يدير بصره هنا وهناك وهو يستحث عقله، لعله يستشرف حلاً لهذه المصيبة.

اقترب من النار قليلاً لأنه أحس ببرودة تجتاح جسمه، وأضاف قليلاً من الحطب ليضاعف حرارة المكان لعله يجد دفئاً يساعده على التفكير، أخرج كيس الشاور من جيبه، ولف سيجارته وملأ صدره دخاناً ونفثه مرة واحدة، ركز بصره تماماً على اللهب الضعيف المنبعث من النار، غاص في أعماق التفكير وكأنه يريد أن يشرك هذا اللهب الضعيف المنبعث من النار، ويمده بحل عاجل، ولكنه عاد مرة أخرى إلى سيجارته وأخذ نفساً منها، وبدأ يلعب بشاربه ويحركه، دليلاً على تأزم الوضع الداخلي النفسي.

الأولاد جميعهم نائمون ما عدا زوجته "طويلة" التي لم تستطع أن تنام، كيف تنام تلك المرأة الصحراوية؟ التي تعرف جيداً بوائق الأيام وصعوبتها بتلك البقعة المنسية والمنفية من أرض الله الواسعة، لن تنام طويلة تلك الليلة، لأنها من ليالي التاريخ التي لا تنسى، لأنها سجلت وشاماً على حاجبيها من ضمن عشرات الأوشمة المشؤومة التي وسمتها الصحراء على محيا ساكنيها.

أخيراً قرر صيَّاح الهروب من البيت وإنقاذ العائلة بأي طريقة كانت، ولكن أين الصباح؟، إن الصباح يبعد مسافات طويلة في ليالي الشتاء.

يقول صيَّاح وهو جالس: (وين؟ ليل بذنبه ليل).

عزم صياح أن ينام أو يموت حتى الصباح مهما كانت النتائج. تناسى كل شيء وحاول بكل قواه أن لا تهزه تلك الأصوات المدفعية التي تصله من الخارج، لأن البيوت هناك بدأت تتهاوى وتزلزل الأرض من تحته، مد جسمه في مكانه أمام النار لعله يفقد الوعي ولو لسويعات قليلة أو لعلها تبين خيوط الفجر الأول. "ما أطولها من ليلة" يقولها صيَّاح الذي يطمئن أن أغلب البيوت المجاورة التي تتهاوى جدرانها هجرها أهلها منذ وقت مبكر جداً.

أما طويلة، فإنها نهضت لتتفقَّد الوضع وتلقي نظرة أخيرة على الأوضاع وتطمئن على زوجها المهموم، تلك "الطويلة" المخضرمة التي عاشت زمنين مختلفين، طويلة البال، واسعة الصدر، واجهت الزمن الأول بصدر رحب ورضاً تام، مرت عليها أيام كالحة ونكبات كثيرة، نهب الوباء أولادها الأربعة، كم من ليلة نامت على لحم بطنها، واجهت رياح الصحراء العاتية وسنوات الجوع الأليمة، شاهدت الناس يموتون جوعاً، أدركت الجزء الأخير من حرب التوحيد، وانشقاق البدو على السلطان، سمعت بأذنيها أهازيج الانتصار، وسمعت أيضاً عويل الناس على قتلاهم، استطاعت أن تكسب زوجها الشديد الذي يشبه الرعد عندما يغضب، أو البركان المدوي عندما تستثيره الأشياء، زخم من الرعب ولكنه فيض من العطاء، يغضب حتى نهاية الغضب، ويعطي حتى تشبع الرغبات، مع هذا استطاعت أن تروض الغضب بالصبر والبال الطويل.

صيَّاح ذلك الحضري الذي شكلته الصحراء بملامحها البدوية، وهجنته رياحها حتى أصبح جزءاً من أشياء الصحراء، يثور كما تثور رياحها ويقاوم بصلابة كصخورها، تخاله هادئاً كأنك تعيش ليلة في صبا الصحراء وذعذعة نسيمها، عندما يبدأ بقرض الأشعار وحوادث الزمان، ويصفو المكان ويمتلئ بالأصدقاء والخلان، وعندما يتغير المناخ النفسي تجده مثل جمل هائج.

صيَّاح من الرجال الذين صنعتهم الأيام والليالي المريرة، من ذلك الجيل الذي تأقلم على البؤس والأوبئة والحروب والنهب والسلب. اعتاد على الترحال فوق ظهور الإبل إلى الشام والكويت والعراق مع رجال عقيل الأوائل، نجا من سنة "الرحمة" التي حصدت الكثير،

ونجا أيضاَ من غارات البدو على القوافل، من الذين يمتصون الضرباتَ والخسائر، وسرعان ما يستعيد مكانته من جديد بعد العمل المتواصل، الذي لا يعرف الكلل والملل طوال التسعين عاماً التي عاشها.

لم تكد تظهر خيوط الفجر إلا وحالة الاستنفار قد أُعلنت بالمنـزل، وبدأت حالات الإخلاء على وجه السرعة والهروب إلى أي مكان. حملوا ما استطاعوا حمله، وفي الطريق الصعب بدأ التفكير: إلى أين؟ في خضم الأجواء السيئة هداهم تفكيرهم إلى الاتجاه شرقاً عند ذلك المرتفع الرملي القريب من البلدة.

أمر زوجته أن تذهب مع أولادها هناك لعله يستطيع أن يدبر أمره "بخيمة" عند رجل يعرفه، وسوف يتوجه إليهم بعدها بأقصى سرعة.. بمقدرته الفذة حصل على الخيمة المناسبة، وجاء يحملها على حمارٍ استأجره من صاحبه وبدأ يشق طريقه إلى المكان.

عند وصوله بدأ الجميع بنصب الخيمة تحت هذه الظروف السيئة، وقد أتموا عملهم خلال ساعة، بدأ الأولاد الصغار يشعرون بسعادة تغمرهم لهذا التغيير المفاجئ.

أما طويلة، فإنها قامت على الفور بإشعال النار وبدأت بإعداد القهوة والشاي والتمتع بهما بعد العناء الطويل، والخوف الشديد خلال الظروف التي مروا بها.

أما صياح، فإنه نهض يلقي نظرة أخيرة على جوانب الخيمة وفيما إذا نصبت جيداً، اختبر الحبال وشد عليها بقوة عدة مرات، تراجع إلى الوراء قليلاً، تقدم عدة خطوات ليتأكد هل عُملت جيداً أم لا، اتجه إلى الأوتاد وضرب عليها وزادها ثباتاً، نظر إلى السماء متسائلا فيما لو زاد المطر: هل تستطيع الخيمة المقاومة؟ أم تراها تحتاج إلى تحصينات جديدة؟ يشاهد السماء مرة أخرى، يقول: "حيل الله قوي". اقتنع أو أقنع نفسه بأن العمل لا بأس به.

أخيراً أصبح في حاجة ماسة إلى الراحةِ وتناوُلِ فنجان ساخن من القهوة. نادته طويلة لتناول الفنجان بالوقت المناسب، جلس بالقرب من النار وصبت له فنجاناً ساخناً دخل إلى حلقه بهدوء تام، كم كان في حاجة إلى ذلك الفنجان بعد الإرهاب الليلي ومشقة العمل صباحاً! صبت له فنجانا آخر فرأى الدنيا تغيرت عن ليلة البارحة، أحس الآن بالأمان المشوب بالحذر، فكر أن يقول شيئاً بعد هذا العمل ولكنه فكر بسيجارته بهذه المناسبة السعيدة، وأخيراً غاص في أعماق التفكير، هناك أشياء كثيرة يجب التفكير بها: السوق- البيع- الشراء- أخبار الأمطار- من أتى ومن لم يأت، هل جُلب للسوق حلالٌ؟ وبكم بيع ومن اشترى؟ جميع هذه الأشياء كانت تدور برأسه، وأخيراً رفع رأسه يشاهد السماء ويستطلع الساعات القادمة، وماذا ستكون عليه الأحوال المقبلة.

قال لزوجته بصوت خافت ومخيف: (فعلنا اللي علينا والباقي على الله). ترد عليه طويلة قائلة: (الله يجعل الخاتمة حسنة). ويرد عليها ويقول: (ما بقى علينا غير الترقب والانتظار

والصبر يا بنت الحلال). يناولها الفنجان فارغاً وهو يهزه، وهذا دليل كفايته من شرب القهوة.

صيَّاح في هذه السويعات الضائعة والخالية تماماً من العمل، بدأ يترقب الوضع ويضرب أخمساً في أسداس، والترقب عادة من عادات الصحراء الأزلية، وجميع الأشياء تترقب وتنتظر "ينتظرون ماذا؟" إنهم ينتظرون ما يوعدون به، ينتظرون المعيشة، ينتظرون متى تمتلئ بطونهم.

جميع الرجوم المتراكمة فوق بعضها وضعت للترقب والانتظار، حتى الضب والجمل ينتظرون ويترقبون، كلهم ينتظرون معجزة لم ولن تتحقق، حتى ولو تحققت سوف تنقلب لعنة عليهم، ستدمرهم وهم يملكونها.

عندما يغيرون على بعضهم كعادة الحياة في الصحراء وينهبون الحلال والجمال، سيأتي في الفجر من يغير عليهم وينهب كل شيء.

تذكر صيَّاح أن الكاسب الوحيد في هذه الميادين الرملية الواسعة والخالية هو الذئب، لأنه يدرك جيداً كيف يغير على فريسته، يفضل الليل الأسود ليبدأ الهجوم، ذئب الصحراء يرسم ويخطط ويداهم وينقض في ظروف غير متوقعة، وتذكر أيضاً أنه يجيد الفتك بشراسة ولا يدع لفريسته مجالاً للهرب.

يأكل حتى يشبع، وإذا شبع فإنه لا يترك له أثراً ولا يترك شيئاً للغد، وإذا نام الذئب فإنه ينام بعين واحدة.

تمنى صيّاح في هذه اللحظات أنه ذئب، ولكنه يعرف أيضاً أن الناس تموت في ليالي القحط، وتعاودهم الحياة عندما تخضر الأرض.

قال لزوجته وهو يحاول أن يكسر الجو الصامت: "لن تباع الإبل هذه السنة". (لماذا؟) تقولها زوجته:.

- لأن البدو في الصحراء سوف يستفيدون جيداً من هذه الأمطار، وسوف يأتي ربيعٌ لم تشهده الأراضي من قبل، لذلك سيبقون على ما لديهم من حلال.

يقول هذا الكلام وهو يحس باللحظات الطويلة التي لم يعتد عليها، وهذه الجلسة الرتيبة أمام النار التي تذكره بأيام خلت عندما لا يجدون شيئاً يعملونه.

يبدو أن الجميع تأثروا بهذا المناخ السائد، الخيمة والنار، الجو الماطر، وهبوب الذكريات الأليمة، حيث تذكرت طويلة أيامها العجاف وكيف كانت تخرج فجرا لتجميع العشب من

البر مع أخواتها، وأنها تقوم مع (شلعة النجمة) حاملة ثوباً كبيراً تجمع فيه المقسوم، وتجلبه إلى السوق وتبيعه بقروش قليلة، تعترف طويلة بأن الحال تغير هذه الأيام وأن الأرزاق بدأت تزداد قليلاً عن السنوات الماضية. قالت: (اليوم الواحد منا بدأ يشبع). يقاطعها صياح: (إديارنا ولله الحمد توسع فيها الرزق، وهذا ما جاء إلا بعد البطرول).

تتساءل طويلة عن (البطرول) الذي لم تسمع به إلا هذه اللحظة: (وشو البطرول ومنهو اللي جابه؟).

- (هذا ماء أسود يطلعونه الأمريكان من جوف الأرض يا بنت الحلال).

- (وبعدين، وش يسوون فيه؟).

- (تبيعه الحكومة وتصرف الأموال على المساجد والمدارس وغيرها).

- (وحنا يابو بليهان ورى ما عطونا).

- (اسكتي يا بنت الحلال. السلطان ما قصر على أحد بس أنتِ ما تدرين عن

شي، نسيتِ يوم إن غداك يطرد عشاك؟). يواصل الحديث: (الحلال يباع ويشترى في

ديرتنا، وقبل وين؟).

طويلة: (تبيعونها بالشام والعراق، وتجلسون السنة والسنتين ما نشوفكم هذا إن عودتوا).

صيَّاح: (قولي الحمد لله على هالنعمة).

***

بلدة الحفرة أيضاً تغيرت قليلاً بعد النفط، أصبح لها دولة حقيقية ساهمت في إنعاش البنية التحتية، وانتعش التعليم وفتحت فيها مدرستان وثانوية، وأصبحت البلاد تُسمع، وصار لها لغتها المكتوبة، واتخذت مكانتها الدولية بعدما كانت نسياً منسياً.

مدرس اللغة الإنجليزية بثانوية الحفرة الملقب بـ(دانيال) ويطلقون عليه في الحفرة (دنان) ذلك اللبناني القادم من البعيد، كان يكتب رسالة إلى حبيبته يقول فيها:

(بلدة الحفرة الغامضة لا أعرف كيف حُفرت، ولا أعرف من حفرها، ولا أعرف متى حفرت، ولا أجد لها تاريخاً، حتى أهلها لا يُعرف من أين جاؤوا، تزداد حيرتي عندما أسمع أن أهلها زاهدون في الدنيا، وأشاهد المساجد المنتشرة والصلاة القائمة، ولكن يصيبني الاندهاش والتعجب والحيرة عندما أعرف أن أهلها يحبون كل شيء، ويلهثون وراء المال ويحرصون على جمعه منذ الصباح الباكر، حتى يجهدهم التعب مساءً ويتساقطون كمخمورين منهكين ليلاً).

ويقول في رسالة أخرى: (كنت أقرأ الوجوه وأرصد الحركات، وكنت مندهشاً جداً من تلك الملامح والتصرفات البدوية الغامضة والمجهولة التي يصعب عليّ اكتشافها، حتى تاريخها الملفق الذي أدركت تماماً أن الحفرة ليس لها تاريخ، وأنه سر لا تبوح به، الذكريات هنا يجب أن تنسى لتبدأ ذكريات جديدة؛ لأن الصحراء كعادتها لا تبقي شيئاً للمستقبل أو للمواليد الجدد).

وقد أكد له مدير الثانوية عندما سأله مرة عن هذه البلدة المعتوهة، الآيلة إلى السقوط والدمار قائلاً: (حتى أهلها سر غامض ولا تستطيع أن تدخل في أعماقهم مهما حاولت ذلك، وإن ألححت فإنهم يهربون منك ويتحاشون المواجهة، ويجب عليك أن تتعلم وسائل أخرى من اختراع الصحراء لتعرفها ويجب عليك أن لا تسأل، بل تستقرئ ما تريد من الجبين أو تعابير الوجه أو العيون، أو من شيء آخر ما عدا السؤال مباشرة، *لأن أهل الحفرة ليسوا صادقين ولكنهم لا يكذبون –ما بين الصدق والكذب تكتشف الحقيقة ولكن الحقيقة غامضة*).

وأكد له أيضاً أنه لا ينبغي أن تقول بل تسمع وتأخذ أكثر مما تعطي، وإلا ذهبت أدراج الرياح وانتهى بك المصير منهوباً، وأصبحت نيشاناً وهدفاً للسخرية والتندر.

وقال: إنه في بلدة الحفرة ممنوع عليك أن تكتشف الأشياء، بل تتبنى المعروض إذا رغبت في البقاء، وإلا فأنت مطرود إلى الجهة الخلفية.

وصادقه القول بأنه: ضاق ذرعا بهؤلاء الناس وأنه ينوي الهجرة، ولكنه يتذكر أن العمر وصل به حداً يجب عليه أن يحط الرحال، وينتظر على أحد الرجوم المرتفعة حوله حيث شيدت لذلك، ولن يرجع بغائب ولا تشاهد وأنت معتليه إلا هذا السراب الممتد إلى ما لا نهاية، وينتهي العمر ويأتي منتظر جديد.

وقال أيضا: ما يعرض في الحفرة مصادق عليه بفرمانات إرهابية يجب أن تستعمل منها، والويل كل الويل لو شاهدك أحد تستعمل غيرها، فإن الخبر سوف يصل مع مهب الريح إلى (طاباش) مراقب السوق ذي العصا الطويلة، وبدوره يصل إلى شيخ الدفاتر (البعيرصي) بسرعة فائقة لأنه في النهاية يستدعيك ويقرر حكمه الوحيد الذي لا يملك غيره: (أنت مرتد ويجب إلغاؤك).

وذكر له أيضاً: أن لا سيادة لأحد فيها على أحد إلا للمال والنفاق لتتمكن من التعالي على الآخرين، ويتحتم عليك وأنت هنا أن تكون (يا ذابح يا مذبوح) فإن تمكنت أن تذبح الآخرين أو أغريتهم بذبحك فستتمتع عندما تموت بمشاهدة الأفواج المشاركين في دفنك وهم يهللون من شدة الفرح والسعادة، وإن لم تستطع أن تذبح نفسك ولم تتمكن من ذبح الآخرين، فيجب عليك أن تستعد لدفن نفسك في إحدى البقع المحرمة وتموت وأنت شاب، وإذا انتظرت حتى يبلغ بك العمر عتياً، فلن يترك لك المجال تموت هكذا.

عندما سمع الأستاذ (دانيال) هذه الأفكار شجعته أن يعمل شيئاً لهؤلاء البشر، ويفتح لهم آمالاً جديدة، ويكون السباق الأول وصاحب اللبنة الأولى.

***

في هذه الليلة الممطرة، ليلة الحادي والعشرين من الوسم، هبت ريح شمالية باردة زادت الموقف سوءاً بالنسبة للناس الذين يبحثون عن ملجأ يلجؤون إليه، بعدما تركوا دورهم الآيلة للسقوط.

أما صياح فإنه أكثر اطمئنانا لأنه استطاع في وقت مبكر أن يجد خيمة، أما الذين ينتظرون المساعدة الموعودة، التي لم تصل بعد من الحكومة، فإنهم أشد الناس تأثراً، وها قد هبت رياح الشمال الباردة التي أهلكت الزرع والضرع.

لن ينسى أهل الحفرة هذه الليلة مدى الدهر، ويكاد لا يسمع إلا أصوات الاستغاثات من جميع النواحي. من هذا البعد كان صياح يسمع تلك الأصوات القادمة من ناحية البلدة، شعر صياح بأنه يريد أن يعمل شيئاً، أن يساعد، أن يتحرك، ولكن هيهات، البلدة تبعد مسافة شائكة، وعند وصوله هناك: من ينقذ ومن يترك؟، هذه بلدة ليست صغيرة، عندها تراجع عن رأيه وظل في فراشه داخل الخيمة، قال كلمتين فقط: (أنا وين؟) تذكر صياح أن بيوت الطين تتهدم بسرعة في هذه الحالات، وتذكر أيضاً أن بيوت الطين صحراوية وأن الصحراء لا تبقي أثراً، وأنها أيضاً تتآمر على ممتلكاتها.

قال صياح لنفسه: إن هذه الأراضي لا تستقر على حال، من سنوات عجاف إلى زخات متواصلة، وعرف أيضاً أنه في سنوات القحط يموت كل شيء، وتتغير المعالم والأشكال حتى الأرض التي يعرفها تمام المعرفة تتغير، حتى الناس والحيوانات، الكل غاضب والرياح تزداد شراسة في سنوات الجفاف، وتزداد النفوس شراهة إلى الحرب والغارات والهجمات المباغتة أيضاً.

وتذكر أيضاَ أن التحالفات والمعاهدات تنفك في مثل هذه الحالة، وأن الجميع يتآمرون على الجميع، حتى الحيوانات والحشرات تحارب لتستولي على ما لدى الآخرين.

أما في سنوات الغيث، فتعود الأنفس إلى سابق عهدها، ويتحول المكان أخضر، حتى الجبال العاتية والحاقدة تتحول إلى خضرة، والحلال يزداد مع الناس ويتكاثر بسرعة فائقة والكل يشبع، وتميل الأنفس إلى السكينة، ومعاودة التحالف من جديد، ويعلق السلاح، وتزول لغة الغزو، وتبدأ التنازلات في كرم، والرغبة في التوقيع على أي شيء، وجميع الشروط مقبولة، ولكن عندما تتبدل الأحوال تمزق جميع الاتفاقات، وتشم رائحة الدم وتبدأ أغاني الحرب.

عندما تهب الرياح العاتية فإنها تزيل جميع الآثار، حتى المشاريع الشامخة في الصحراء تختفي عن الوجود، لن تصدق أن هذا المكان كان يوماً مقاماً عليه مشروع من المشاريع، ينتهي كل شيء، وتنقلب المفاهيم، وتتغير اللغة، وتشم رائحة البارود، ويغني الموت وتجاوبه الجبال وهي تزغرد.

كان صياح يعرف هذه الأشياء ويستعرضها في مخيلته عندما حاول محاولة مستميتة أن ينام وينسى، ولا سيما أنه كان متعباً جداً، ولكنه يعاود التأمل مرة أخرى.

(كل شيء يأتي في هذه الصحراء بقوة، حتى الموت والحياة، وعندما تأتي فإنها تدمر).

(هذه ليلة سيئة) كان يقولها صياح، وإنها ليلة الذئب التي ينتظرها على مضض، في هذه الليلة يخرج الذئب من مخدعه ويستعد للقنص، وإن الذئاب التي لم تصطد في هذه الظروف فإنها لن تتعشى أبداً.

إنها ليلة إبليس الوحيدة التي يظهر فيها وهو يغني، ويعقد قران الذابحين على المذبوحين، وإنها الليلة التي تشرب فيها الفناجين القدرية، وتقرأ الفاتحة على أرواح الشهداء الذين ينتظرون على قارعة الطريق.

كل هذه الخواطر مرت بمخيلة صياح وهو يحاول ويصارع النوم الذي لم يأت بسهولة ويسر.

في الصباح استيقظ فزعاً مذعوراً بعد نوم عسير، يفكر بمدى الأضرار التي قد تصيب الضعفاء من جراء الليلة الصعبة التي مرت، استيقظ ملهوفاً لاستطلاع الخبر، فنادى زوجته وطلب منها أن تعمل فنجان قهوة بسرعة؛ لأن هناك عملاً ما يجب أن يذهب إليه.

احتار في تخميناته. وهو يشرب القهوة: ما الذي حصل في تلك الليلة الغابرة؟ يحاول عدة مرات تطمين وإقناع نفسه بأن الأمر لا يعدو أن يكون إلا حادثاً عابراً وهواءً بارداً هب أول

الليل، وأن تلك الأصوات القادمة من أطراف البلدة، ما هي إلا من عمل الشيطان، ليس لها وجود.

حاول صياح أن لا يتحدث عما سمع كي لا تظن زوجته أنه كان خائفاً وحاول مقاومة أفكاره، إلا أنه يريد أي أحد أن يشاركه همومه تلك اللحظة، التفت يميناً وشمالاً وعندما رأى نفسه وحيداً، وأنه مضطر إلى أن يرى رأي زوجته، التفت إليها بعينيه الحادتين والمخيفتين، أحست عندها بأن هناك أمراً هاماً لا يريد الإفصاح عنه، حاولت أن تُقدم وتسأله وهي مرتبكة جداً لأنها تعرفه جيداً عندما يكون مضطرباً، ويبدأ بتصويب نظره هنا وهناك وهو لا يتكلم، أحياناً تكون هذه النظرات موجهة إلى أي شخص طلباً للمبادرة بالكلام، وأحياناً تكون حالة سوداوية لا يفهم المطلوب منها، إلا أنها وبكل قوة بادرت بسؤاله عن الأمر: (وش بك؟).

حدَّق فيها برهة تحديقة المعاتب على هذه الجرأة.

أجاب: (أبداً أنا... أقول الريح والمطر ليلة البارحة ما استمرت واجد، والصياح اللي سمعته الظاهر والله أعلم إنه صياح إبليس ولا هنا إن شاء الله إلا العافية).

بادرت طويلة بتساؤل ومخاوف عديدة ظهرت عليها، ذلك عندما سألت عن مصير والدتها وأخيها اللذين لا تعرف عنهما شيئاً، وعما إذا كان هذا الذي حصل ليلة البارحة أدى إلى هلاكهما أم لا، طلبت من صيَّاح أن يتأكد أو يسمح لها أن تذهب إلى هناك للاستطلاع.

أكد لها صيَّاح أنه سوف يذهب هو بنفسه إلى هناك ويعرف الأخبار ويأتي بأسرع وقت، وأنه متأكد جداً أنه لا خوف على أمها لأنها تسكن بيتاً لا بأس به، وأنه سوف يقنعها بالحضور فور وصوله، أخيراً ضحك ضحكة صغيرة سرعان ما تلاشت، وقد عاتب نفسه على الحوار وخاصة أنه مع امرأة عقلها ضعيف ووزن ذبابة، هز الفنجان الذي كان بيده عدة هزات وقال كلمته: (بس).

نهض من مكانه بقوة، وقام يستعد للمغادرة ووصول السوق قبل أي شيء آخر، رفع ثوبه وضمه إلى جذعه، لبس العباءة الشتوية الثقيلة التي جلبها منذ عدة سنوات من الكويت عندما كان يعمل بالغوص، ووضع على رأسه قطعة ثقيلة من القماش اتقاء للمطر، وأخذ عصاه الطويلة لمساعدته في اجتياز الطريق المؤدي إلى سوق البلدة، زوجته كانت واقفة تراقب الوضع، بدأ خياله يبتعد ويتلاشى شيئاً فشيئاً في وسط هذه المسافة الواسعة والممتدة إلى الحفرة حتى تلاشى تماماً، وأما طويلة فقد عادت إلى الخيمة مهمومة وجلة.

في الطريق شاهد صياح شخصاً قادماً من بعيد ولكنه لا يستطيع تحديد هويته، توقف عن السير ووضع كفه فوق حاجبيه لعله يستطيع أن يجمع بصره ويتعرف جيداً على من يكون.

أخيراَ خمَّن من يكون بكلمات قصيرة: (هذا.. إيه.. إيه كان مناب واهم هذا عبدالله القنار "أبو صالح" وين يـبي هالخبل؟ وش صاير عليه؟).

حينما اقترب من شبح أبي صالح صاح له:وين يابو صالح؟ خير إن شاء الله، وش علوم الديرة؟.

أبو صالح: أبد يابو بليهان! اثن عشر لحية ماتوا البارح.

اهتز صياح لهذا الخبر واختلطت أوراقه وتسمر في مكانه.

صياح: تعرف منهم أحد يابو صالح؟ قالها بهدوء خوفاً من استفزاز ذلك الرجل الغاضب دائماً، والذي لا يهدأ من التهديد والوعيد لكل من لا يعجبه.

أبو صالح: (أكثرهم ورعان والباقي ما أعرفهم). قال هذا دون أن يلتفت واستمر في طريقه فزعاً مسرعاً، والأدلة تشير إلى أنه ذاهب لأمر خطير، حتى بادره صياح بسؤال.

قال صياح: زين وين تبي هالحين؟.

أبو صالح: أبروح لهذا. يشير بعصاه إلى مبنى كبير وهو مقر لأمير البلدة (حمود البتاع).

صياح: وش تبي به يابو صالح، هذا بيت الأمير؟.

أبو صالح: رافعاً عصاه متهدداً متوعداً (أبروح أوريه وش يكون...)، (وين الخيام اللي وعدنا بهن؟).

صياح: بصوت عالٍ بعدما ابتعدت المسافة بينهما: (تراهم يحبسونك يابو صالح).

توقف أبو صالح فجأة وقد شعر بالتحدي والاستفزاز، وأدار وجهه باتجاه صياح واستند على عصاه وقد وضعه تحت ذقنه، وقد احمرت عيناه غضباً وعندها قال: "ما دريت إني محارب وتحديت أكبر الطغاة وذبحته بعد؟".

رد صياح. بس هذولا الحكومة يا بو صالح.

رد أبو صالح رداً أكثر تحديا: (عمنا السلطان ما قصّر بس هذا حمار)، شد جسمه ورفع عصاه إلى أعلى وهزه عدة مرات وأضاف: (والحمار يابو بليهان ما له إلا مثل هالشوم، يدق خشمه).

واصل طريقه بحزم وعدم اكتراث والغضب الساذج ظاهر كسحابة صيف، سرعان ما يخبو ويتلاشى أمام المواجهة.قال صياح: بهواك.. بهواك.. سوِّ اللي تبي يابو صالح.

قالها صياح وكله شفقة على هذا المسكين المعتوه الذي يواجهه مصير أسود لو فعل ما أراد.

وصل صياح السوق وقد شاهده خالياً من أي حلال، مما جعله يحس بمرارة وخيبة أمل، شاهد مجموعة من الرجال الجالسين على شكل حلقات تحت مظلات الدكاكين الدائرة بالسوق، متقين الأمطار التي ما زالت تنهمر خفيفة ولكنها مستمرة.

بحث عن الحلقة المناسبة وعن الرجال الذين يطمئن إليهم، لا سيما إذا كانوا من رفقاء الصبا والشباب الذين كانوا معه في الزمن الأول، أثناء الرحلات السابقة والمغامرات التجارية والمشكوك في عودتها سالمة.

وجد ضالته وشاهد من يريد، واتجه مباشرة إليهم وهو ملهوف جداً لمعرفة هذا الخبر المشؤوم الذي سمعه من أبي صالح (عبدالله القنار) سلم عليهم بسرعة وجلس أمامهم وبسرعة أكبر سأل!: (هاه يا جماعة، خير إن شاء الله، وش اللي حصل البارحة واللي سمعناه صحيح؟).

أجاب عن سؤاله أبو شلهوب، وهو من الأصدقاء القدامى وخوياه أثناء الرحلات البعيدة قال: (إلا بلى يابو بليهان الله يخلف على أهلهم).

صياح: (منهم؟)

أبو شلهوب: سحمان المطوع وعياله ثلاثة، ورقية العلي وبنتها، وأبو محمد راع الملحاء، وولدين لسالم الفرهود، واثنين من البدو الطرقية كانوا نايمين بالمسجد وطاحت عليم المنارة.

صياح مندهشاً وحزيناً: (له.. له.. له.. يا لله مقسوم خير) وقال أيضاً: (الله يرحمك يا راع الملحا فقدناك وفقدتك المراجل، قضت الرجال يا عيال).

تساءل صياح بعد لحظة حزن ووجوم وقد رفع رأسه: (باقي بالديرة أحد؟).

رد عيد الساكت: (ما بقى إلا شمالي الديرة).

صياح: (إيه هذولا ابيوتهم جديدة).

أضاف: (إن زاد السيل ما أحد باقي).

عيد الساكت: قضى نهاية عمره ساكتاً فاقداً الأمل بإنجاب الذرية، يقول العارفون به: إنه استعمل لحاء الكافور عندما كان بالعراق، بعدها لم ينجب ولن ينجب أبداً، ويقول عنه أبو شلهوب كما كان يردد دائماً: (إنه أكبر نحوت بالديرة وعينه دائماً على الأطفال، لذلك تسارع الأمهات بإخفاء أطفالهن عند مروره بالطريق؛ خوفاً من عينه الشديدة التي تحرق الطفل وهو بحجر أمه). أصيب أخيراً بخيبة أمل وسكوت عام، ولكنه عندما يغضب أو يستثيره أحد فإنه يتفجر كالمدفع ولا يستطيع أحد إسكاته، ولكن يقول صياح إنه رجل عند اللزوم، وإن عدت الرجال فهو واحد منهم.

حميد الأصمخ الذي يجلس بطرف الحلقة، ولا يستطيع أن يفهم الحوار الذي دار بينهم إلا بالإشارة؛ لأنه فقد سمعه بسبب انفجار المدفع عندما شارك في الزمن الأول بإحدى المعارك ضد الترك، ولأول مرة يدخل معركة بعدها أغمي عليه ولم يفق من الغيبوبة إلا وقد حسمت المعركة، كان يقول وبغضب: (والإمارة وينهى؟ وين الخيام اللي تبي تدزها... أوخرطي؟).

سكت الجميع خوفاً من أن الجدران لها آذان، إلا أن صوت صياح أتى مبدداً للسكوت وهو يبرهن لهم أن الحفرة يمر عليها هذه الأيام ظروف صعبة جداً وهذا امتحان من الله، وهذا بسبب القلوب السوداء والنية الفاسدة والغش والكذب والمعاملة السيئة التي يقترفها الناس هنا، وقد ذكر لهم أن الأحداث التي تعيشها ردٌ على هذا.

قال صيَّاح: (بالأمس القريب عشنا مشكلة الكلب "دنان" وما جرى من سواد وجه، وقبل نصحى ينشق علينا السما، وقبل هذا وذاك تأتي مشكلة البرقية وغرابيلها).

***

في الطرف المقابل من سوق الحلال وتحت مظلة أخرى، كان يجلس شخصان أحدهما عبدالله الحمود مدير الثانوية، والآخر المدرس المصري الجديد الذي كان بديلاً للأستاذ "دانيال" بعدما طرد من الحفرة، كان الأستاذ.عبدالله يروي القصة الحزينة التي لا تزال أحداثها طرية لم تغب عن ذاكرة الحفرة، يذكر أن دانيال يطلق عليه بالحفرة "دنان" وهو لبناني الأصل والناس هنا يعتقدون أنه نصراني جاء إلى هنا وهو يحمل أفكاراً متحمساً لها.

المدرس: ما هي أفكاره يا أستاذ عبدالله؟.

عبدالله الحمود: أفكاره ليست محددة بالضبط، وكنت بعيداً جداً عن الوضع، ولكن تحمل بمجملها مفهوماً عاماً عن الوضع المتردي بالمنطقة الصحراوية بوجه عام.

ويرغب بتحرير الأرض ومن عليها، إن أفكاره يا أستاذ كبيرة جداً وصعبة التحقيق، وإنها أحلام بعيدة، إلا أنه وجد من يؤيدها من الطلبة، وخاصة هؤلاء الطلبة الغاضبين على طاباش لأنه يمنعهم من ركوب الدراجات مدعياً أنها (حصان إبليس) وهي حرام، ويترصد لهم بالطريق المؤدي إلى المدرسة، يصادر دراجاتهم ويشبعهم ضرباً ويرفع دعواهم غالباً إلى البعيرصي مما جعل هؤلاء يتحينون الفرص للإيقاع به، وقد وجدوا فرصة ذهبية عندما روج دانيال هذه الأحلام التي ضلت طريقها وحطت في بقعة تأكل نفسها.

نسي دانيال أو تناسى أن الهوية والحقوق تعني شيئاً واحداً فقط في هذه البقعة، وهي البحث عن لقمة تسد الرمق ولو ليوم واحد؛ لأجل مقاومة هذه الجغرافيا العنيفة في أرض الله الواسعة.

في يوم من الأيام اشتد الاحتجاج والشعور بالغضب العام؛ من جراء وجود طاباش قريباً من المدرسة ومعه مجموعة من ذوي العصي العوج، يتهددون ويتوعدون أي شخص يركب دراجة، مما جعل الطلبة يتجمعون يقودهم خمسة أشخاص من الطلبة الذين تعلموا أفكار الأستاذ دانيال. "فهد القطوة" زعيم المجموعة، شاب طويل القامة زائغ العينين، ذو شارب طويل، حليق الذقن، أحدب الظهر، ناحل الجسم، يلبس ثوباً طويلاً إلى ما تحت الكعبين وغترة بيضاء، أنيق، إلا أنه يميل إلى الشراسة، صوته جهوري خشن،، بالعشرينات من العمر، يشعر بالمرارة والغضب والاحتجاج، إلا أنه حريص على دراسته، منضبط بالدوام الدراسي، مثقف ويحب الصراع والجدل الفكري كثيراً.

الرجل الثاني بالمجموعة "أحمد العبد ربه" طالب أيضاً بالثانوية، متحمس ونشط، يفضل العراك، ذو عين واحدة، فقد الأخرى أثناء معركة بالأيدي وقعت بالمدرسة مع مجموعة من الطلبة، والذي يعتقد هو بأنهم رجعيون.

جده متدين ومشهور بالحفرة، اختفى بظروف غامضة أثناء الجدل الديني مع البعيرصي ومؤيديه، هذا الجدل الذي دار بالحفرة منذ زمن بعيد حول تكفير العثمانيين.

الثالث "أبو عرب" ولد الشاوي كما يطلقون عليه؛ لأن والده قدم من الصحراء وأخذ يرعى الغنم لأهل الحفرة، أكبر المجموعة عمراً لأنه دخل المدرسة وهو متقدم بالعمر، أراده والده أن يتعلم "فك الخط" وقراءة القرآن.

أما الآخران فهما شقيقان يطلقون عليهما (الجرادة وقنيفذ) والدهما جزار من الدرجة الثانية، ولكنهما كذئبين، حركتهما مستمرة، دائماً ما يجوبان البلدة عرضاً وطولاً، وهما متحمسان لعمل أي شيء لإغاظة "طاباش الطلو".

كان المعلم الجديد يسمع تلك القصة وهو متحمس لسماع المزيد، وطلب من الأستاذ عبدالله الحمود أن يكمل هذه القصة؛ لأنه يشعر وهو تحت هذه الأجواء الممطرة، بأن

الصحراء يجب أن تكتشف، كما كان يردد دائماً أمام زملائه.

واصل الأستاذ عبدالله روايته قائلاً:

تجمع الطلبة يقودهم هؤلاء الخمسة، وعندما شعر طاباش ورفاقه بالخطر يهددهم انسحبوا بسرعة، واختفوا تماماً عن الساحة قبل أن تصل إليهم الأيدي.

واصل الطلبة مسيرتهم متجهين إلى قصر الإمارة، أثناء المسيرة انضم إليهم شخص من خارج المدرسة اسمه (خشمان ولد مضاوي) من عمال النفط الذين قدموا إلى الحفرة قبل يومين من الحادثة، طرد من عمله في شركة النفط بسبب حركة الشغب التي قام بها العمال هناك؛ لأنهم يطالبون بتحسين مستواهم المعيشي، وكان خشمان ولد مضاوي على رأس الحركة، وقد ضرب أحد الأمريكان.

عاد إلى مسقط رأسه (الحفرة) ووالدته مضاوي، وكان ينوي أن يفتح بالحفرة ورشة لإصلاح السيارات، كان دائماً يريد إغضاب الآخرين وخاصة "طاباش الطلو" لأن طاباش يمارس ضده الإرهاب، وقد جلده في السوق عدة مرات، ويحمل لطاباش ثأراً ومرارة دائمة.

جلده مرة لأنه شاهده يشرب دخاناً، ومرة عندما شكاه إمام المسجد لأنه لا يصلي الفجر مع الجماعة، ومرة شكاه جاره لأنه يسهر الليل ويغني ويصاحب الغناء صفير، ولأن والدته مضاوي ذكرت مرة لزوجة الجار أن معه صوراً جلبها معه من هناك، وقد أهداها له نصراني من أصدقائه الذين يعمل معهم، وأنها صور أناس أشبه بالشياطين والجن، وبها جنية شبه عارية، مما أغضب طاباش هذه المرة وأقسم بالأيمان المغلظة أن يجلد "خشمان ولد مضاوي" عشرين جلدة (بالرطيب) وليس بالخيزران، قام طاباش مسرعاً إلى إحدى المزارع المجاورة، واختار عشرين عسيباً من فحول النخل التي يعرفها جيداً، ونقعها بالماء يوماً كاملاً لتكون قوية ومتينة، ووضعها في مكان الجلد وسط سوق الحلال.

وصل الخبر إلى الناس وتأكدوا أن طاباش يريد أن يجلد أحداً هذا اليوم، الكل خائف والكل يترقب وجميع الرجال بدؤوا يتذكرون ماذا فعلوا من خطأ يستحقون عليه العقاب، ظهرت عليهم ملامح الارتباك والخوف وفقدوا شجاعتهم.

تجمع الناس بعد صلاة العصر في سوق الحلال، لعلهم يسمعون خبراً يريحهم من عذاب الهم والوسواس، أو تقع عينا طاباش على واحد منهم.

أبو شلهوب يتوقع ويؤكد أن الذي سيُجلَد (بدويٌ) سرق قبل يومين ناقة وجلبها إلى السوق، ولكن طاباش قبض عليه، وإن الأمر ليس جلداً فقط ولكنه "قطع يد".

أما حميد الأصمخ، المغرم بالقنص، فإنه يؤكد أن الذي سيجلد ثلاثة أشخاص غرباء دخلوا البلدة في آخر الليل (عند خفقة الثرياء) مهربين ثلاثة أكياس "تتن" وقد تعرف على آثار أقدامهم عند المدخل الشمالي، حتى الكلب الذي يصاحبه عندما شم آثار أقدامهم بدأ ينبح بشدة وكاد أن يعضه، وأصبح أشد شراسة مما جعله يستخير الله ويرجع إلى الحفرة، وفي مكان آخر وجد آثار أقدامهم وهي تلتقي مع آثار السفلة "أبو عينين" بياع التتن، ولكن "وضحى الخرمى" أم شفلح "المجنونة" اقتحمت الرجال وهي سعيدة تزغرد وتؤكد أن المسألة ليست مسألة جلد وإنما "ذبح" كما شاهدتها بالرؤيا ليلة البارحة، وأن الذي سيذبح "السعلو" الذي خطف ابنها الوحيد منذ عشرين عاماً وعرفت أخيراً أنه أكله، وإلا لما انتظرت هذه المدة الطويلة حيث فقدت عقلها مع الزمن، وتحكي ملابسات الموضوع وأنها ذهبت منذ مدة إلى شخص به "زيران" يستحضر الشياطين، وأكد لها أن "السعلو" عبد أسود يسكن بالغيران الشرقية على حافة ضلع طويل، وعندما سمعت ذلك أبرقت للسلطان تشتكي إليه الحال، وقد أرسل مجموعه من "الخويا" الذين قبضوا على السعلو واليوم سيذبح.

أثناء هذا الهرج والمرج والروايات والتخمينات العاقلة والمجنونة، أصيب الناس بلحظة وجوم وذهول عندما شاهدوا خشمان يُسحب على وجهه ويُقذف به بينهم وهو يرتعد من الخوف وبجانبه رزمة الرطيب، وطاباش يمشي بالأرض مرحاً يعلوه الكبرياء والغطرسة.

يتكلم أحد الناس مع شخص آخر ويقول:

إن ما خانتني الذاكرة فهذا خشمان ولد مضاوي.

يقول آخر: "إلا بلى هذا، وش طيح المسكين بيد هالبلية؟".

عشرون جلدة بعشرين عصا، لكل عصاً ضربة واحدة فقط، كانت الطريقة المتبعة في تعذيب الصحراء التي لا ترحم أحداً، يقوم عليها رجال شداد غلاظ طبعتهم الصحراء بشراسة استثنائية كطاباش وغيره والمتخصصين بهذه الأساليب العدوانية، وكان خشمان من ضحاياها.

لو أن خشمان لم يعد من الغربة لكان أفضل، لو عاش هناك وتعايش مع النفط لأصبح إنساناً آخر، وغنى الأغاني التي يريدها وشاهد ما أراد من الصور، أو عاد إذا كان لا بد من العودة بجلد ضب، وتماشى مع الحياة في الحفرة كيفما تريد الحفرة، لا كما يريد هو، هذا هو نظام الطبيعة، أما أن يتعدى خشمان الخط الأحمر والحدود المرسومة له ولغيره، فلا بد من الجلد بهذا الرطيب الخشبي القاسي، وإنتاج الصحراء الذي يتحدى المتغيرات بجميع معانيها.

تقدم طاباش كجمل هائج والزبد يتناثر من جوانب فمه، وآخذ عصاَ قوية من العصي العشرين، وبإشارة سريعة بُطح خشمان أرضاً، أمسك به رجل من قدميه وأمسك آخر كتفه ووضع رأسه تحت إليته وربض عليه بشدة، وقد عفر أنفه بالتراب.

بدأ طاباش يلقي بنظرات التحدي على المجتمعين، يسبر ردة أفعالهم بالاحتجاج أو الرضا، ضرب طاباش الضربة الأولى على إلية خشمان فالتوى المسكين وانفلقت إليته، هذه الإلية التي عراها الزمن والتي تشبه إلى حدٍ ما "قربة" قديمة، مرت عليها سموم الصيف وهي مقذوفة على قارعة الطريق، وهذا العود الأسمر النحيل الذي براه الزمن الفقير.

تناول طاباش عصاً آخر وألقى نظرةً على المجتمعين ليشاهد ردود أفعالهم مرة أخرى، أحس بأن هناك شفقة، فحاول أن يجير الموقف لصالحه، قال بأعلى صوته: (بعد.. بعد.. قلة صلاة وصور أمريكانيات وصوفرة بالليالي المدلهمات، باكر تسلق علينا دورنا يا ولد الـ...).

هوى بالعصا الآخر فتكونت بقع الدم وسكت خشمان عن الحركة تماماً وقد عض على لسانه.

أكمل طاباش العشرين، وتركه يئن في مكانه وقد أصبح غارقاً بالدماء بين الحياة والموت.

انقسم الناس إلى قسمين بين مؤيد ومعارض.

أهل العصي العوج والذين يوجدون على الموائد ويغنون على الموتى مؤيدون كل التأييد، أما المحايدون والذين خلقوا لمطاردة أرزاقهم، فهم يرون أن طاباش بالغ كثيراً بالتعذيب ولا يستحق الأمر سوى (تفلة) على الوجه فقط، هؤلاء يمثلهم صياح وعيد الساكت وغيرهما.

أما الغلمان والمتخلفون عقلياً أمثال "وضحى الخرمى" و"تركية الحبطاء" و"سند الهويري" الملقب "إست البسه" فإنهم انطلقوا مع الريح يخبرون والدته (مضاوي)، سند الهويري كان أعمى استنجد بأحد الأطفال يمسك يده ويدله على الطريق، إلا أنه متحمس للوصول أولاً لعله يفوز بالجائزة المشؤومة قبل الآخرين، ولكنه يركض أمام الطفل مما جعله يصطدم بالجدران عدة مرات، وقد تورم رأسه أوراماً تشبه البيض، وصل السرب المهاجر إلى (مضاوي) وكانت "تركية الحبطاء" قد كسبت قصب السبق ووصلت الأولى، وهي تصرخ بأعلى صوت (الحقي يا مضاوي وليدك اذبحه طاباش). سمعت مضاوي هذا الكلام ولكنها أصيبت بصدمة ورعب شديدين، ولم تتأكد مما سمعت، قبضت أكتاف تركية الحبطاء وهزتها بقوة وهي تسأل عما قالت، تأكدت جيداً مما تقوله، ثم تناولت مضاوي عباءتها ولبست نصفها والنصف الآخر كان يخط بالأرض، اندفعت بسرعة إلى السوق مفجوعة على ابنها، ولكنها اصطدمت فجأة وبمنعرج الطريق بسند الهويري الذي لم يصل بعد وهو يلهث ككلب، عندما تأكد أنها مضاوي مسك بطرف ثوبها وهو يقول بصعوبة:

(أقول يام خشمان وليدك تراهم...) لم تلتفت إليه وإنما صرخت بوجهه: (إبعد عن دربي يا إست البسه).

سكت سند وعندما غادرت بسرعة قال: (ولي.. ولي.. من مرة لعنة الله على هالوجه). عندما وصلت السوق وهي ترى الجميع صاحت بأعلى صوتها: (وأغلى علي وليدي، وأغلى علي صبي العين، وش سوابك الطاغوت)، طاحت على ابنها وهو منكفئ على وجهه، وقد ضمته إلى صدرها، تفقدت جسمه، ولما شاهدت الدماء تسيل من إليته وظهره صرخت وضمته مرة ثانية، ثم قامت وخلعت السروال وشدته على موضع الألم وقالت بأعلى صوتها: (يالنشاما، يا أهل الديرة، يا عيال الحمية إعيالكم يذبحون قدام عيونكم وأنتم ساكتين، ما يصير يا وجوه الخيبة، يا ويلي.. يا ويلي).

أخيراً حملت ابنها على حمار بعدما حاولت عدة مرات أن تحمله، حملته ممدداً على بطنه فوق الحمار وأطرافه تتدلى على الجانبين.

في الطريق إلى البيت تدخل الحمَّال (عربيد) بالأمر وقال: (الله يهديك يا أم خشمان ما ربيتي ولدك وما دربتيه على الصلاة مع الجماعة، وكفيتيه عن الغناء والصوفرة تال الليل).

لم تترك مضاوي الأمر يمر بهذه السهولة، بل بدأت تبحث عن سر طاباش وكيف هاجر إلى الحفرة منذ زمن بعيد حتى أصبح من أهلها.

كانت تروي هذا الكلام بعدما عثرت على أخباره، كانت تروى من أناس موثوقين وأقرباء لها، وأنها تصدقهم بأن طاباش انحدر إلى الحفرة منذ ثلاثين سنة قادماً من المنحدرات الغربية، وأنه زانٍ حُكِم عليه بالجلد والتغريب، لأجل هذا قدم إلى هنا واستقر، هذا هو سر أبو...، شيطان الحفرة، واستمرت تروي تلك القصة. في مجالس النساء ما بقي لها من عمر.

أكد الأستاذ الجديد أنه يريد أن يسمع القصة كاملة، ولو أن الظروف الماطرة تجعل الجو حذراً خوفاً من سقوط أي شيء عليهم، واصل الأستاذ عبدالله حكايته نزولاً عند رغبة الأستاذ الضيف، وأن الضيف يجب إكرامه.

قال: اقتنصت المجموعة هذه الفرصة السانحة، وبدؤوا بتحريض الطلبة ضد الطاغية والإعراب عن رفضهم لأوامر طاباش وتحديه في وضح النهار، وتحديهم للرئيس الأكبر (البعيرصي) وتحدي جميع ما يروجه ضدهم من أفكار، ويطالبون السلطان بعزل الأمير حمود البتاع لأنه أصبح مطية لهؤلاء الطغاة، وأن السلطان الرحيم بشعبه لا بد أن يفعل شيئاً ضد هذه العصابات، كان يقود الجميع (فهد القطوة) وينظم صفوفهم (أحمد العبد ربه) أما (الجرادة) وأخوه (قنيفذ) فهما يحملان الأعلام.

أكثر الطلبة المنضمين لا يعلمون خفايا الأمور، وكل ما في الأمر هو التعبير عن رغبتهم في قيادة الدراجات بدون ظلم.

أما المجموعة فإنها تعتبر هذا التجمع أول شرارة لانطلاق التظاهرات في كل مكان من الصحراء.

لهذا انضم خشمان وقد تهلل محياه بشراً، واعتقد أنها الفرصة الذهبية للانتقام، قال: (اليوم تغيب شمسك يا طاباش). تقدم خشمان أمام المظاهرة مهللاً مكبراً يردد: (جاء الحق وزهق الباطل) وهو يحمل "عجرا" طويلة ليدق بها خشم طاباش. حُمل خشمان فوق الأكتاف وهو يترنح كبرياءً، ردد الطلبة هذه العبارة: (يعيش خشمان ويسقط طاباش الطلو، يعيشون الشباب ويسقطون الـ...).

طوق الطلبة قصر الأمير من جميع الجهات وهم يرددون العبارات المتحدية، كل من في القصر سمع الهتافات، حتى الأمير أصابه الذهول وصار ما بين مصدق ومكذب، لم تعتد الصحراء وبلدانها على مثل هذه الاحتجاجات، واستغرب الجميع ذلك حتى الأمير طلب من "خويه" (ابن شينان) أن يصعد إلى المقصورة ويتأكد من الخبر.

تأكد النذير من تلك الأصوات، وتأكد أيضاً أنها متجهة صوب القصر، وتأكد بأم عينيه أن خشمان هو قائد التظاهرة، عندما لمحه فوق الأكتاف، هكذا أصبح خشمان قائداً وبسرعة فائقة.

يبدو أيها الأستاذ أن المفاجآت سمة من سمات الصحراء، وأن الحكم النهائي على الأشياء يبدو من ظواهرها، لذلك نحن مهزومون دائماً.

قال الأستاذ: لأن الهزيمة يا سيدي المدير تعتبر في بلادنا انتصاراً، ولا بد لك أن تكون مهزوماً لتصبح رمزاً يفتخر بك.

واصل الأستاذ عبدالله بقية الرواية، قال:

قيدت هذه الخطيئة الكبرى باسم خشمان المسكين، وأطلق على القائمين بها في بلدة الحفرة اسم (قوم خشمان).

أبرق الأمير برقية عاجلة إلى السلطان يقول فيها: (أدركونا إن المدعو خشمان ولد مضاوي ومعه مجموعة من عيال المدارس يحاولون الاستيلاء على قصر الإمارة، وقد طوقوا القصر من جميع الجهات، ولا يوجد لدينا القوة الكافية لمواجهتهم.

كان الأمير حمود البتاع يبرق إلى السلطان وقد بدت عليه ملامح الرعب والخوف، وقد حاول أن يتماسك أمام "الخويا" ولكن فضحته يداه ورجلاه.

طاباش والبعيرصي تماسكا الأيدي وهربا من الحفرة لما سمعا وشاهدا الحدث، يركضان ويسقطان ويلتف مشلحاهما على أرجلهما ثم يسقطان مرة أخرى، هذا وقد امتلأ أنفاهما ولحيتاهما من التراب والغبار.

طاباش يتخيل وهو يركض أن خشمان خلفه ومعه سيف بتار، تشقق ذنباهما من كثرة الظراط، ولكن لا أحد يسمع الآخر من شدة الخوف والرهبة، لا يعرفان الوجهة التي سيختبئان فيها على وجه التحديد، لذلك فإنهما يركضان مع كل جهة.

استمر حصار الطلبة حتى الظهر، وأصوات الاحتجاجات تملأ القصر من كل جانب، كاد بعض الطلبة أن يتسلق القصر وينجح بذلك لولا الغوغائية التي طغت على حركة المتظاهرين، وعدم إدراك الهدف والمعنى الحقيقي، وعدم التجربة والخبرة بمثل هذه الحالات، وإلاّ لأصبح القصر ومن سكنه في خبر كان، بدأ الطلبة يتسربون من أرضية المعركة إلى بيوتهم ولم يبق بالميدان إلا أفراد المجموعة المنظمون وخشمان.

أدرك أفراد المجموعة أن المظاهرة فشلت ولم تؤد إلى هدفها المطلوب، وأدرك أيضاً الأستاذ (دانيال) ذلك عندما كان يراقب الوضع من بعيد، أصاب المجموعة الخذلان والفشل وخيبة الأمل.

وكذلك خشمان الذي لم يشف غليله بعد من طاباش، تمنى الطلبة في هذه اللحظة أن دانيال معهم ليدلهم على الطريقة المثلى للنجاة في لحظة الحيرة. هذا وقد تراءى لهم دانيال من بعيد فانطلقوا باتجاهه، طمأنهم دانيال بأنهم فعلوا شيئاً وأنهم استطاعوا أن يقولوا شيئاً، وأن هذه الخطوة التي فعلوها أرهبت الجميع، وأنها الخطوة الأولى وسوف يتبعها خطوات بالمستقبل، وأن عليهم الصمود والتماسك لأن النجاحات المقبلة والمستقبل السعيد ينتظرهم، وطلب منهم أن لا يلتقوا به مرة ثانية، ويعتبروه بعيداً كل البعد عن الموضوع وإلا انكشف أمرهم.

من هذه اللحظة يبدو أن الخوف من غضب الصحراء بدأ ينتاب دانيال وفكر أن يكون بعيداً، وساوره إحساس بأن الصحراء تقول له: (ابعد يا هذا ولا تلعب بمصيرك، إن جميع الأحلام التي تحلم بها مستوردة وهشة، لا تستطيع أن تلتحم مع صخور الصحراء الخشنة).

الوحدة والقومية التي تحلم بها هي عبارة عن تماثيل جامدة لا تستطيع أن تتحرك في هذه الأراضي، وإذا حاولت أن تحركها فإنها تسقط فوق رأسك، وإن المتضرر الوحيد هو أنت، وأنت أيضاً المهزوم الأول، وإن أول صفعة سوف تتلقاها من هؤلاء الذين تحلم بتوحيدهم.

لم يتسرع السلطان في إرسال قوة تحمي الأمير من هؤلاء الثائرين، وإنما اكتفى بإرسال برقية يطلب من الأمير تزويده بآخر الأخبار، وعما إذا كانت الأوضاع مستقرة أم لا. أجاب الأمير على برقية السلطان بهذه الإجابة:

(الظاهر يا طويل العمر أننا استعجلنا الأمر، وإن كافة الطلبة انسحبوا إلى منازلهم، ونخبركم أيضاً بأن المدعو خشمان ما هو إلا قطعة حداد لا يساوي قرشين، واعذرنا عما حصل من إزعاجكم).

أرسل السلطان برقية الرد: (نأسف كل الأسف عما بدر منكم، عالجوا الحدث بأسرع وقت ومن ثم توجهوا إلينا مع أولادكم وكل ما تملكون بأقرب فرصة تجدونها).

البعيرصي وطاباش الطلو علما بالأمر، وأن الحادث ما هو إلا عمل مجموعة من الصيع ولا خوف منهم.

في الهزيع الأخير من الليل تسلل البعيرصي وطاباش إلى البلدة ودخلا بيتيهما سرا..

خشمان لما انفض الجمع من حوله، انحدر إلى كثيب من الرمال كان قريباً وجلس يدخن ويفكر بالنجاة، في آخر الليل أيضاً قبض على الجميع واحداً واحداً وسحبوا من بيوتهم مكتوفي الأيدي، حتى خشمان قبض عليه وعومل بغلظة شديدة وقسوة لاعتقادهم أنه رئيس المظاهرة.

اهتزت "الحفرة" عند الصباح من جنوبها إلى شمالها، واشتغل الناس بالخبر وكَثُرَ الهرج والمرج.

كان عربيد الريشاء يعلن للناس أنه شاهد البعيرصي وطاباش يخرجان هاربين، ويحذر الناس بأعلى صوته قائلاً: (يا جماعة الخير... يا أهل الديرة، الله العالم أنها غارة علينا من يم الباب الجنوبي، صكوا بيبان الديرة قبل ما تنهب وتحلت روسكم)، أما تركية الحبطاء فاليوم يومها؛ شوهدت بأول الديرة كما شوهدت بآخرها وهي تسعى بين النساء للإعلام، وأن السلطان سوف يدخل الديرة (باكر أو اللي عقبه) وما على الجميع إلا تجهيز الحال للشحاذة، وكانت عباءتها تسبقها أحياناً، وأحياناً تطير خلفها من شدة السرعة التي تتحرك بها.

وضحى الخرمى متأكدة أنه عثر على من أكل ابنها، وبقية الناس منهم من يغني للشر، ومنهم الخائف على فلذة كبده، ومنهم غير المكترث، ومنهم من يرى أن الأمر لا يستحق مثل هذا الصراخ؛ لأنه في النهاية سوف يكون (عصوين وتفلة بالوجه وعند الظهر سوف يغادرون الحبس، ويخرجون إلى أهلهم).

لهذا استمروا في عملهم بالبيع والشراء ومعاركة الجمال.

ولكن الأمير حمود البتاع لا يعتبر ما جرى بالأمر الهين وأن (رجل الديك تجيب الديك)، ويقطع بأن وراء هذا الأمر جهات غير معروفة، وأنه عاقد العزم على كشف ملابساتها حيث قال: "بالمشعاب يظهر المستور" وقال أيضاً: (والله... والله لخلي زغاغيلهم تباري كراعينهم). ولكن برقية السلطان الأخيرة جعلته يعيد النظر ويكتفي بالعقاب فقط.

في هذه اللحظات الحرجة، رأى الأمير أنه لا بد من حضور البعيرصي وطاباش للخروج بقناعة معينة، تحفظ له ماء الوجه أمام السلطان وأمام الناس، ومغادرة الحفرة بسلام معززاً مكرماً.

أما ما حدث من البعيرصي وطاباش، فإنهما رغبا من الجماعات المؤيدة الحضور فوراً لمناقشة الوضع الكائن والخروج بموقف موحّد أمام الجميع، والضغط على الأمير باتخاذ أشد العقوبات.

حضر الجمع ومن بينهم أصحاب العصيّ العوج والتجار المرابون والمنافقون وكافة المؤلفة قلوبهم، وكادت جميع عوامل الصحراء الحية والميتة أن تحضر، ولكن "علي الأزرق" شرّف إلى الاجتماع، هذا المجنون الساخر الذي استطاع بأفكاره المجنونة أن يدوخ الحفرة وما بها. حضر إلى الاجتماع اعتقاداً منه أن هناك وليمة دسمة سوف تُقَدَّم وعليها ما لذ وطاب من (جنوب الحيل السمان).

حضر علي الأزرق بدون دعوة بمجرد رؤيته للناس متوافدين على دار البعيرصي، هذا وقد جلس تحت ركبتي أحد الحضور مادا إحدى رجليه وثانياً الأخرى، وقد وضع طاقيته المرقطة على ركبته، كاشفاً رأسه الأقرع.

ذكر البعيرصي الحضور بأن هناك متغيرات سريعة حدثت بالحفرة بسبب هذه المدارس الجديدة وخاصة الثانوية، حيث قال: (يا إخوان مثل ما تشوفون السياكل والغتر البيضاء والدخان والصور الشنيعة بدأت تنتشر، وباعتقادي أنها بدع جديدة لم نكن نعرفها من قبل، حتى الشباب بدؤوا يشقون عصا الطاعة، وأصبح لهم رأي مخالف، وشاهدتم ما حدث أول البارحة، وما قاموا به. وأنا أبى منكم تقولون رأيكم).

قال الجميع وبصوت واحد: (الرأي رأيك يا عم، وحنا ما نطلع من شوفكم).

ولكن عيون الجميع تتطلع إلى ذلك الباب الصغير في مؤخرة المجلس الكبير والمؤدي إلى داخل المنزل، ظناً منهم أن هناك وليمة دسمة سوف تأتي من هذا الباب. قال البعيرصي: "أنا أرى يا جماعة الخير أن نترك الأمر بيد الأمير حمود البتاع وهو الذي ينظر بالأمر"، وهذا ما كان يريد منهم، ويطلب التأييد الكامل ليكون حجة شرعية، ويتفرد مع الأمير باتخاذ ما

يروق له من حكم، ويصبح الجميع تحت رحمته، ويأمر بما يشفي غليله لأن ما حصل لا يمكن أن يفوت على خير: (وسوف يرد الصاع صاعين).

سكت الجميع دليلا على الموافقة، وأرادوا اختصار الموضوع بسرعة ظناً منهم أنه عندما ينتهي من الأمر سوف يأمر بإحضار الوليمة.

فجأة سُمع صوت ذو غنة يقول: (أو(دنان) يا عم.لا تخلونه تراه اجعري وكافر).

سمع البعيرصي هذا الصوت ولكنه غير متأكد من صاحبه بسبب ضعف نظره، وقد سأل عن من يكون صاحب الصوت فقيل له: (هذا علي الأزرق يا عم). رد البعيرصي: (وهذا وش جابه معنا؟، أحلتوه بالشارع، وصكوا الباب).

جذبه أحد الجالسين من طوقه بشدة، ثم سحبه وقذف به خارج المنزل، وقد سقط على بطنه ثم أُغلِق الباب.

قام علي الأزرق بتثاقل وهو ينفض التراب عن يديه وملابسه ورأسه، وكان سميناً كبير الكرش بطيء الحركة، صاح بأعلى صوته من ثقب صغير بالباب وقال: (والله... والله إن "دنان" أطيب من شواربكم يا عيال الحرام).

قبل مغادرة الجميع يائسين من الوليمة، إذا برسول الأمير الخوي (أبو عربود) يأتي حاملاً رسالة شفهية إلى البعيرصي يقول فيها: (الأمير وده يشوفك يا عم) رد البعيرصي: بعد ساعة وأكون عنده.

ذهب البعيرصي فوراً إلى قصر الإمارة، بعدها عقدت جلسة خاصة بين الاثنين، خرجا باتفاق يرضي الجميع، ويحفظ ماء الوجه ويزيد من هيبة الجميع.

1- يُجلد الستة جلداً صارماً، ويؤخذ عليهم تعهد بعدم تكرار ما حدث.

2- يُشاع في الحفرة أنهم سيذبحون، ويُحضر الجلاد العبد (خسارة) أمامهم قبل الجلد ممتشقاً سيفه.

3- في النهاية وبعد ذهول الجميع يتدخل البعيرصي وطاباش لدى الأمير، ويطلبون منه العفو عنهم والاكتفاء بالجلد فقط، بمشاهدة أولياء أمورهم.

4- يُشدد ويُضاعف التعزير على خشمان لأنه رأس الفتنة.

5- يُستدعى المعلم (دنان) ويُحقق معه وللأمير اتخاذ اللازم حياله.

في يوم الجمعة وفي الساعات المبكرة انتشر خبر إعدامهم هذا اليوم بعد الصلاة مباشرة، فهاجت الحفرة وماجت، وبدأ الناس يتجمعون لاستطلاع الخبر، وهل سينفِّذ الإعدام خسارة أم طاباش أم رجل آخر؟، تعمد الأمير أن يرسل خسارة إلى السوق في وقت الضحى لسن السيف عند أحد الحدادين.

وصل خسارة إلى السوق، وشق طريقه أمام الناس وهو يحمل السيف البتّار، والموت الأسود خيّم بأجنحته على الجميع، والناس كأن على رؤوسهم الطير، وبلغت أرواحهم الحلقوم، وأغلبهم بال على ثيابه، وتراءى للجميع يوم القيامة بوضوح، وكأن خسارة ملك موت يمشي على الأرض.

بسرعة فائقة وصلت الأخبار مع الركبان إلى جميع القرى والمزارع المجاورة، ووصلت أيضاً إلى الرعاة بالفلاة. جميع من على الأرض المجاورة سمع بالخبر، شوهدت الضبان والثعالب وهي تقف على الرجوم بكثرة؛ لأنها أحست من زلزلة الأرض فوق رؤوسها بأن هناك أمراً ما يدور.

قرّر أهل القرى والمزارع وجميع الرعاة أن يصلوا صلاة الجمعة في الجامع الكبير والقريب من سوق الحلال، من أجل أن يتسنى لهم مشاهدة الذبح عن قرب.

وضحى الخرمى ساهمت في إشعال حريق لتتمكن من طبخ الخبر بالطريقة التي تعجبها، حيث كانت تقف في درب استراتيجي يمر منه جميع الناس، لتؤكد للمارة أن (الذين سيذبحون سبعة وليسوا ستة) لأن السابع هو "السعلو" الذي أكل ابنها، وهي متأكدة من ذلك لأنها ليلة البارحة واجهت الخوي (أبا عربود) وذكر لها ذلك، وأنها لم تنم هذه الليلة.

آباء الستة وأولياء أمورهم لا يحسدون على هذا الموقف، يركضون من كل جانب. ساعة يشاهدون هنا وساعة هناك، يطرقون أبواب الوجهاء لعلهم يعثرون على شهم يتوسط لهم عند الأمير.

الشاوي والد "أبو عرب" لما وصلته الأخبار ترك الرَّعية، وعاد مسرعاً إلى الحفرة. أما الجزار والد الجرادة وقنيفذ فإنه ترك لحمه للقطط، وذهب إلى سوق الحلال.

قرر الجميع الذهاب إلى ناصر القطوة عم فهد القطوة لأنه يحظى بمكانة عالية لدى الأمير لعله يفعل شيئاً، لما استقبلهم سقطوا بين يديه وهم يستصرخونه بالنجدة، وفك أرقاب أولادهم.

قال الشاوي: (يا عم ناصر اليوم يومك، عيالنا يذبحون افعل أي شيء، واجه الأمير، أنت عزوتنا، وأملنا بالله ثم بك). تفوه ناصر القطوة بهذه الكلمات:

(ساعة وأنا عند الأمير، وسأبذل المجهود والباقي على الله).

لبس عباءته وأخذ عصاه يتوكأ عليها، لعله يستطيع أن يفعل شيئاً، خرجوا من بيت ناصر القطوة ملهوفين، وكادت أن تتوقف قلوبهم وعيونهم إلى السماء رافعين أكفهم، يدعون الله بالاستجابة، وأن لا تخيب آمالهم.

تماسكوا الأيدي وهم منحرفون على عجل إلى بيت البعيرصي لعل وعسى أن يستطيعوا وقف التنفيذ، ولو أدى ذلك إلى التحالف مع الشيطان، وقد وصلوا بشق الأنفس.

استأذنوا فأذن لهم بالدخول، وجدوه جالساً بصدر المجلس كالطاووس، سلموا عليه، رد عليهم السلام، انكبوا عليه متوسلين أن يرحم ضعفهم ويهب لإنقاذ فلذات أكبادهم، وقد شقوا جيوبهم أمامه، ودعوا له بالصحة والعافية.

رد عليهم بكلمتين فقط (يكون خير).

عادوا بعدها إلى السوق منفلقة أكبادهم من شدة التعب والعطش، ومن عيون الناس أيضاً التي إما أنها تذبحهم، وتتشفى بهم، أو تشفق عليهم وتدعو لهم بالفكاك والخاتمة الحسنة.

سقطوا في وسط السوق، وقد اسودت الدنيا في عيونهم، هذا وقد دار حولهم الناس من كل جانب على شكل حلقة رغبة في الاستطلاع، حتى جاء وقت الصلاة، واقتربت الساعة من موعدها، وانحدر جميع المزارعين والرعاة والطفيليين إلى الحفرة، وازدانت جميع الدروب المؤدية إلى المسجد، وامتلأت ساحة المسجد بالمصلين، حتى سطح المسجد وجميع الساحات الخارجية، رغبة بمشاهدة هذا الحدث العظيم.

ضاعت وضحى الخرمى في وسط الزحام، ولم يستطع صوتها الأبح أن يتعدى مكانه.

حتى عبدالله القنار الذي أراد أن يغتنم الفرصة ليؤكد للجميع أنه محارب قديم وعسكري، ويثبت هذا الأمر بتلك المشية العسكرية الصارمة، التي حاول بقدر الإمكان أن يمثلها للناس، لولا بعض الأشقياء الذين يعيقونه وهو يحاول، بكل ما أعطي من قوة، أن يرفس الأرض رفسات قوية، تدل على أنه خاض العسكرية أيام شبابه الأولى، ولكن هؤلاء البشر الأغبياء لا يريدون تصديقه.

"عربيد" الذي أهمل حماره بدون قيد في لحظة شرود وتأمل بهذا الجمع الغفير، ترك الحمار يملك حريته، ويهاجم أحد الحمير الغريبة عن الحفرة، الذي لم يعتد على رؤيته؛ ظناً منه أنه سيستولي على حماره. دخل الحماران في معركة رهيبة، انهزم فيها الغريب، وشق طريقه في الزحام، وحمار عربيد على إثره مما أدى إلى إصابات وجروح بين الناس، وفي النهاية استطاع مجموعة من الحمّالين فك الاشتباكات بكل صعوبة، وكاد الحماران أن

يحسما المعركة داخل المسجد لولا أن الله ستر، واستطاع هؤلاء الشجعان فكهما قبل نهاية أليمة.

انتهت الصلاة، وتراكض الناس إلى ساحة السوق، وقد غص المكان بهم، تسلقوا الجدران والسطوح الدائرة بالسوق، ليتمكنوا من مشاهدة اليوم العظيم.

أُحضر الستة معصوبي الأعين، يساقون كحمير، وكان خشمان في مقدمتهم رُبط بثقله حبالاً، وكل فرد منهم تولاه مجموعة من رجال الأمير يجرونهم جراً.

أصيب الستة بلحظة توقف عام، ولم تعد تساعدهم أفكارهم بإجابة تامة وحاسمة عن الأمر والمصير الأسود.

سأل الجرادة سؤالاً خائفا تملكه العبرات: ما الأمر؟. رد عليه أبو عربود: (تشهد يا ضراب الحرام).

سمع الآخرون هذا الكلام، فانهارت قواهم بالكامل، وتأكدوا بأنهم ملاقون ربهم، وأن الساعة آتية، صاح خشمان بأعلى صوته حيث قال: (يا جماعة الخير ودي أشوف الوالدة وودعها).

رد عليه الخوي "أبو شنان": (اسكت يا ملعون الوالدين).

في هذه اللحظات الصعبة وصل الأمير إلى الساحة وبصحبته البعيرصي وناصر القطوة.

توقفت الجموع الغفيرة عن الهرج والمرج، وأصبح كأن على رؤوسهم الطير، لا تكاد تسمع أي شيء.

وبإشارة خاطفة من الأمير وعلى مرأى من الناس تقدم غراب البين (خسارة) ممتشقاً سيفه والذي بدأ يعطي لمعاناً كاللهب، ومتلهفاً لأكل الرقاب.

تغيرت وجوه الناس، وانقلبت إلى صفرة، وانهار الكثير منهم.

أولياء الأمور شاهدوا ما يجري، وبدؤوا يستفرغون ما في بطونهم على مشهد من الملأ.

بينما الجو الأليم يخيم على المكان الدموي الأغبر، حدث ما لم يكن في الحسبان، صوت من الخلف يبدد السكون إنه صوت مضاوي أم خشمان وهي قادمة، وقد فرعت عن وجهها، أفسح لها الناس الطريق وهي تخترق الجمع، تقدمت إلى وسط الميدان تصيح بأعلى صوتها، ترجو من الله أن يدمر المتسبب لابنها بهذا المصير، وقامت بتمزيق ثيابها، لولا أن الأمير أمر الخويا بقذفها خلف الناس.

سمع خشمان صوت والدته فصاح بأعلى صوته: (بالجنة نشوف بعضنا يا نظر عيني) صاحت مرة ثانية وهي تُجر إلى الخلف: (يا الله... يا الله أنك تجزي الظالم بظلمه يا سميع يا عليم بهذا اليوم المبارك).

شاهد الأمير وسمع بأذنه، وما زاده الموقف إلا غلظة وشراسة، ولولا خطاب السلطان الأخير لأصبح الجميع إرباً بسيف هذا العملاق المتوحش والمدعو خسارة.

في ساعة الكربة هذه بدأ الوضع يتحرك نحو الانفراج، تقدّم البعيرصي وقبل رأس الأمير وطلب منه العفو عنهم هذه المرة، ولكن بدا الأمير وكأنه متعنت، ولا يقبل المساومة أبداً، وأن الأمر لا بد أن يتم.

بعدها تقدّم ناصر القطوة وطلب من الأمير العفو، وقبل لحيته، وسقط أرضاً، وضم ساقي الأمير، وطلب منه أن يقبلها هذه المرة وهو يقول: (يا طويل العمر حنا طالبين منك إعتاقهم لوجه الله ورأفةً بأوليائهم).

وافق الأمير على إطلاق سراحهم، وأصدر أمراً إلى خسارة بأن يغمد سيفه، ولكن طلب من طاباش أن يجلدهم جلداً يتذكرونه مدى العمر.

هاجت الناس، وماجت، وصفقت للأمير وملؤوا المكان صفيراً وفرحة. والد الجرادة وقنيفذ أُغمي عليه لما سمع بالخبر السعيد، والبقية من أولياء الأمور غير مصدقين بهذه النهاية.

جلدهم طاباش جلداً عظيماً، وأحس بأنه ملأ رغبته الوحشية حتى مرحلة التلبك والإنهاك العضلي، بدا في النهاية وكأنه يتخبطه الشيطان.

أما الستة فقد حُملوا مغمى عليهم. كانت مضاوي تحمل خشمان على ظهر حمار، ومن خلفها تركية الحبطاء، وعربيد ممسك برقبة الحمار وسند الهويري، ثم تبعهم علي الأزرق لأنه يعرف معرفةً جيدةً تامةً بأن مضاوي من النساء القلة في الحفرة التي تتقن جيداً صناعة "الكليجاء"، وهي أقراص من القمح ممزوجة بالسكر والليمون الأسود، لعله يحصل على واحد أو اثنين منها.

تذكرت مضاوي هذا ولم تنس عندما وصلت إلى دارها، أعطت كل واحد منهم ثلاثة أقراص بالكامل، بدؤوا يضحكون ويبكون من شدة الفرح بنجاة خشمان، أو بالمكسب العظيم الذي حصلوا عليه،الأمر سيان عندهم ما داموا حصلوا على فريسة.

توافد الكثير من الناس على دار مضاوي للتهنئة والتعبير عن فرحتهم، ولكن الأقراص السحرية قد نفدت بالكامل، ووعدت من تبقى بأنها لن تنام هذه الليلة حتى تصنع منها الكثير، وما عليهم إلا الانتظار حتى الصباح الباكر.

أحمد العبد ربه لم يتوقف عن الهذيان، طيلة الأسبوع كان يلعن كل الناس، يلعن من أشار عليه بالبقاء في هذه الحفرة الملعونة التي لا تصلح لشيء، ولكن خيبة الأمل وقلة الحظ من الأسباب التي أدت إلى بقائه هذه المدة الفارغة، التي يأسف كل الأسف أنها ذهبت من عمره.

كان يردد وهو في فراشه هذه الأبيات بصوت عالٍ وغنائي أليم:

(الديرة اللي حكم بَهْ طويلان ... تنعاف لو صافي ذراها زمرد)

كان المدير عبدالله الحمود يروي هذه المأساة للأستاذ الجديد؛ لأنه حريص كل الحرص أن يسمعها كاملة وبأدق تفاصيلها؛ ولأنه سيكتشف الصحراء من خلال هذه الرواية. لما تأكد الأستاذ عبدالله من هذه الرغبة الملحة لدى الأستاذ قال لنفسه: (وهذا صاحب أحلام أخرى ولكنها من نوع آخر؛ لأنها تعتمد على اكتشاف الصحراء، واكتشاف الصحراء مطلب مستحيل وجنوني أيضاً؛ لأن الصحراء كما نعرفها جيداً أعيت أن تُكتشف؛ لأنها بقيت منذ ملايين السنين وحدها، ولم تحاول ولا لمرة واحدة أن تتعرف على الآخرين).

وعد الأستاذ عبدالله الأستاذ الجديد بأنه سوف يروي له ما تبقى منها في وقت قادم، وأنه يجب عليهم الآن مغادرة المكان، والخروج من تحت هذه المظلة الملغمة مادامت السيول تهطل بغزارة.

عاد صيّاح أيضاً إلى خيمته وأولاده كما تعود الطيور إلى أعشاشها، عاد وهو محملٌ أخباراً عن الأهل والخلان، عندما عصدتهم رياح التغيير والأمطار الهمجية.

نسبة من الناس لا بأس بها وقد سكنوا خياماً، أما البقية المستضعفة فقد تحولوا إلى أوشاق وثعالب لأنهم احتلوا مخادعها (والأمر يومئذ لله).

كانت البسمة الأليمة تبدو على وجهه عندما شاهدتها طويلة بنظرة خاطفة وسريعة، وقد تظاهرت بأنها لم تر شيئاً، واستمرت بتحضير "الهجور"، وهو قليل من التمر مع إناء متوسط الحجم من اللبن، تطفو فوقه قطعة من الزبد، إنها بسمة مختلطة، بين هذا وذاك، بين اللذة والأسى، إنها من تلك البسمات التي تحمل أسفاراً، ولا يستطيع أي كائن مهما كان أن يفك رموزها.

لهذا تحاشت طويلة المواجهة خوفاً من تلك السوداوية التي تنتابه أحياناً في الظروف الغامضة. عندما تبدو تلك البسمة المختلفة يشرد الأولاد من أمامه كما تشرد الغزلان في لحظة الخطر.

عندما قرؤوا هذه البسمة المجهولة التي تحذر من وجود صرخة ما سوف تنطلق من هذا الفك الملثم، تناول صياح المقسوم، وتنحى جانباً بدون كلمات، ما عدا تلك العينين المحمرتين اللتين تراقبان السماء برهة، ثم تنقلبان على الأرض في طأطأة طويلة.

"ما الأمر"؟! تقولها طويلة: (هل حزن هذا أم تفاؤل؟ ماذا حدث لأهلي؟ وفي أي فج هم؟.

لا بد أن الأمر أسود! ألا يمكن أن تكون سقوف الحفرة تآمرت عليهم، ونامت فوق رؤوسهم نوماً سرمدياً؟. لا بد من المواجهة وليكن... ما يكون).

بقوةٍ سألت: (وين أهلي يابو بليهان؟).

رفع رأسه؟ وأرخى لثامه بهدوء تام، ونظر إليها نظرة مجهولة، وصمت قليلاً ثم أجاب: (بخير.. بخير، يم النفود القبلي الله العالم يزورونا باكر أو اللي عقبه).

عاد بعدها إلى مناطحة الأرض بعينيه، دخل بغيبوبة من التفكير كالعادة.

شجعتها تلك الإجابة على أن تسأل سؤالاً آخر ولو بحذر، قالت: (صوت الليل اللي سمعناه البارحة وش علومه؟).

رفع رأسه مرة ثانية وقال:(اثنا عشر نامت عليهم البيوت من شرقي الديرة ولاهوب الظاهر تعرفينهم). كان يجيب زوجته بعين واحدة وقد أغمض الأخرى وكأنه يقول: كفى سؤالاً وإلا.

اقشعر بدنها، ونهضت بسرعة خوفاً من رجوم الشياطين تتوجه إليها بدون مقدمات.أما تلك البسمة الأليمة والمجهولة الهوية التي لا تكاد تفارقه منذ عودته، فإنه عندما كان عائداً وقد اقترب قليلاً من باب الإمارة شاهد هناك عبدالله القنار، التقى به في الطريق عندما كان ذاهباً إلى الحفرة، وكان يحمل مهمةً خطرةً ويرغب في مواجهة الأمير، وأنه سيلقنه درساً أبدياً. لما شاهده صيّاح توقف قليلاً.

وعلى مسافة ليست بعيدة، أراد أن يشاهد ما يحدث من هذا العملاق المفتول.

اقترب من الوضع أكثر، وقد ربط الكيس الذي وضعه على رأسه جيداً لاتقاء المطر، وضع اللثام جيداً حتى لا يعرفه عبدالله ووقف يشاهد. كان عبدالله مقعياً على رابية ليست مرتفعة أمام الباب الكبير، ماسكاً بعصاه الطويلة وقد غرزها بالرمل، وأسند رأسه عليها.

كان يردد بصوت منخفض هذه العبارات: (أروح... أو ما روح. أروح أو ما روح... أهجم أو أصبر).

فجأة ثار من مكانه كجمل لأنه شاهد الخوي (أبو شينان) يتوقف أمام الباب، تقدم وسلم، وكان مرتجفاً من الخوف، رد عليه أبو شينان السلام بطريقة عنجهية واستهتار، كان أبو شينان متكئاً على فم البندقية.

قال أبو شينان: (هاه وش جابك يا عبدالله).

بدا الارتباك واضحاً على عبدالله، وقد غابت الشجاعة ولم يبق لها أثر عند المواجهة الحقيقية.

كان أبو شينان يتلاعب بشاربه الطويل بين أصابعه.

رد عليه عبدالله القنار قائلاً: (أبداً طال عمرك، الوالدة تسلم عليك وعلى الأمير كثير السلام، وتطلب خيمة من هالخيام ولو صغيرة).

كان يحك رأسه وهو يجيب، والقمل يتساقط من شعره الكث، وكان يسرق النظر إلى الداخل وقد شاهد الأكوام المكوّمة من الخيام التي أرسلتها الحكومة في بداية الهدام، ولم توزع بعد.

رد أبو شينان بأسلوب حازم: (أقول لك. يا عبدالله روح... روح بعيد، وانهج لأهلك قبل ما يعورك السيل). وقد أعقب هذا الرد بضربة من خشم البندقية على كتف عبدالله، ارتج عبدالله في مكانه وتلخبطت أوراقه، وتراجع إلى الوراء وأخيراً غادر المكان وهو يلتفت فترات، وعندما ابتعد مسافة بحيث لا يسمعه أبو شينان، توقف وأدار وجهه نحو أبي شينان وقال: (هيّن يا أبو شينان والله.. والله إن ما قطعت خصيانك وخليتك تاكلهن ما أكون عبدالله) وعندها اختفى تحت المطر.

تحرك صياح بعد هذا المشهد، وواصل طريقه إلى خيمته وهو يحمل تلك البسمة المعذّبة المقهورة.

في الصباح الباكر شوهد عبدالله القنار وهو يؤذن بالناس المنتشرين هنا وهناك بأعلى صوته، واضعا عصاه على كتفيه وهو يقول: (الخيام اللي وزعها طويل العمر السلطان تراها في بيت الأمير. الحاضر يعلم الغايب. يا ناس يا مساكين فكوا حقكم).

استقبل جميع الناس هذا النداء بتفلة ساخرة وهم يلعنون اليوم الذي شاهدوا فيه هذا الظالم تطأ أقدامه أرض الحفرة.

في الظهيرة وقبل العصر بقليل توقفت شاحنتان مجهولتان في وسط السوق محملتان بالخيام، وقد بيعت جميعها، وكان السمسار رجلاً مرابياً يقال له "دمعان"، ومعروفاً عند

الجميع بهذا الاسم.

تأكد للحضور أنها تلك الخيام التي ذكرها عبدالله القنار، وخاصة عندما شُوهدت طمغات حكومية على كل واحدة، وقد طمست جيداً حتى لا تعرف.

الفصل الثاني

في الليلة الثانية والعشرين من الوسم هدأت الأمطار قليلاً، وكأنها أرادت مسافة مقتطعة من الزمن القاسي، إما لتستعيد أنفاسها بعد الهجوم الكاسح، وتبدأ بتقدير الخسائر الهزيلة، خسائر الفقراء والمعدومين الذين سحقم قبلها هجير الصيف، أو أنها أدركت صدفة خطأ في توجيه الهجوم الذي كان يراد به أراض أخرى، أو أن المصالح قد تحولت إلى مواقع أخرى.

كاد القمر أن يضحك باكياً، ويعتذر للأفق، ويؤكد أن الذنب ذنب الشمس وهو بريء مما حصل. وأن الشمس تتجسس على الضياع، وأنها العميلة الأولى للبحر وهي التي قادت العملية، ولا بد من صدور مذكرة توقيف!.

ضج الجياع وخافوا، وعبر الساكنون في مخادع بنات آوى بالعواء فرحة بالسكون المشروط.

خرجت بنات آوى المستعارة لتتفاوض مع النجوم، وتناجيها وتأمل من الله إعادة الانتشار، وتطلب أيضاً من خالقها التدخل في إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه، مكتفية بالهزيمة الأولى الأزلية.

في الصباح العسلي تخلصت السماء مما حملت، وبدأت الشمس تبصق خجلة وعلى فترات قصيرة، ولأول مرة يحمل النسيم رائحة الربيع الكسول البني، حتى النخيل الحدب بدأت تتخلص من بصاقها وهي كئيبة ولديها رغبة في الإجهاض.

أما الطلحة المنفية التي تقع على أطراف الوادي الملتف، فإنها رفعت يديها مستسلمة.

توافد الناس على سوق الحلال بدون حلال للتهاني والتبريكات بجلاء العدوان، ما عدا صياح الذي يضرب أخماسه في أسداسه متسائلاً عن الحلال: هل هو بالطريق أم غادر إلى أسواق أخرى؟.

ولكن بالتأكيد أن القوافل انقطعت بها السبل، وإلا ما معنى هذا التوقف؟، قال في لحظة التقدير: (البدوي يستثمر حتى نقطة المطر، والحلال يختفي تماماً من السوق).

لكن الحلال يعود إلى السوق عندما تبدأ رياح الحميم تجتاح الرخاوة الرطبة، وتحويلها إلى أشلاء وهشيم.

شوهد طاباش بالسوق ولأول مرة بعد الغيث، شوهد كديك رومي وهو يقيس المسافات ذهاباً وإياباً، يفتش عن أي شيء يتوجب أن يضرب؛ لأن عصاه كادت أن تلتوي من النسيان.

تركية الحبطاء ووضحى الخرمى وقفتا تتسولان أمام باب الجامع، ولأن وضحى الخرمى تحذر البخلاء من مغبة بخلهم، وأنهم خلف الأسباب التي أدت إلى تدهور الأوضاع، وأنه يجب فك الأغلال والدفع بالتي هي أحسن، وإلا سوف تعقب الأوضاع أوضاع أسوأ منها.

تركية الحبطاء تؤكد أن الحسنات يجب أن تدفع لها، وأن تلك المرأة ما هي إلا مجنونة لا تستحق إلا الصفعة.

علي الأزرق ذو الكوفية المعلقة على الركبة، كان يجلس بالطرف المقابل مسنداً ظهره للجدار، إنه يطالب هاتين المسحوقتين بالذهاب إلى البرية، وتناول الأعشاب بعد هذه الأمطار بدل التسول العقيم، حيث قال لهما: (البربرير يا بنات الـ...). قبل الظهيرة بساعتين هبت رياح مجهولة ليست مع السحب ولا ضدها، وإنما اعتراضية قامت بفصل السحب، وجزأتها وخلطت ألوانها بطريقة أشبه ما تكون بوجوه الجنود الذين يحاربون بالغابات الكثيفة، وتنكرت عن نفسها وكأنها تتهيأ لهجوم جديد سري ومباغت، لتأتي على ما تبقى من أحياء.

وعند المساء خيم الظلام بصعوبة وبلون باهت، والناس يشوبهم الفرح والتوجس وقد ناموا جميعاً بعد وجبة ترابية، شعروا بعدها بالغثيان اللزج، وقد نبأت هذه الليلة بصباح جاف.

بنات آوى الحقيقية والذئب الأزرق واصلوا السهر وضاعفوا الجهود لاقتناص وجبات إضافية في تلك الليلة الرمادية.

في الصباح هبت الناس من مضاجعها، وخرج الضعفاء من الجحور المحتلة، يعلو وجوهها البشر والأمل بزوال الهم الثقيل الذي حاق بهم.

أول المباشرين إلى سوق الحلال علي الأزرق، هذا الوجه الصبوح، والحكيم الساخر، وبسمة الحفرة التي لا تغيب. قال عنه الأستاذ عبدالله الحمود: عندما تريد أن تضحك، أو تتحرر من تلك الوجوه السرية التي تواجهك في كل مكان، أو تتشفى منهم، ما عليك إلا أن ترشو العم علي لأنه بالمرصاد، ومستعد لكل المناسبات، وخاصة أنه يعتقد أن هذه الوجوه هي التي سرقت عقله.

جاء إلى السوق وهو يحمل مخطوطاً قديماً للقرآن وقد وضعه في كيس من القماش، ورث هذا المخطوط عن أبيه الذي ورثه عن جده. لا يستطيع علي الأزرق أن يقرأ بهذا الصوت

الجميل إلا بهذا المخطوط فقط. بعض الذين يعرفونه جيداً يقولون: إنه لا يستطيع (فك الخط).

أكثر الناس ينصتون إلى قراءته وأحياناً يبكون، جاء إلى السوق ليس للبيع والشراء، وإنما وجد في نفسه رغبة لأن يقرأ، ويستمع إليه الجميع، وأن نفسه وشجونه تماهت مع هذا الصباح الرطب. الدافئ نوعاً ما، ولكن يقول الناس: إن ما يعيب علي الأزرق أو ما يجعله لذيذاً قريباً من النفس توقفه عن القراءة أحيانا. وفي مرات عديدة ليقول للناس تلك الشطحات الملعونة، التي مرت بعقله فيتحول بكاء الناس إلى ضحك عبثي.

"أكل المقلب" مرة عندما كان يقرأ والناس من حوله منصتون خاشعون، توقف طاباش الطلو خلفه يستمع إلى هذا الصوت الجميل الذي شده، وكان يقرأ بسورة العلق، ولما وصل (غاسق إذا وقب).. توقف، وقال: تراه طاباش الطلو، وعندما بدأ يدير نظره هنا وهناك ليشاهد ردة الفعل عند الناس على النكتة، وقعت عينه على طاباش خلفه وقد سمع ما قال، تجمد في مكانه، وفاحت من تحته رائحة كريهة، فهرب الناس من حوله وهم يمسكون بأنوفهم.

مرة كان يقرأ، ولما تأكد أنه اجتمع حوله الكثير من الناس قفل المصحف، وكان حاملا على أخيه سليمان وأراد أن يتشفى منه فقال: (أخوي سليمان قريب الشبه بأخواله وخاصة بكبر الـ...).

كان يذكر أشياء كثيرة، وخاصة ذكرياته بالكويت عندما كان شاباً قوياً، تدل على أنه كان سافلاً ومنحطاً وعاطلاً عن العمل، ولا يستطيع أحد معرفة الملابسات التي جعلته يأتي من هناك، وكانت حالته المادية لم تتطور، كما هي عندما ذهب لأول مرة.

في الجهة المقابلة من سوق الحلال كان يقف عبدالله القنار، حيث اجتمع حوله بعض الغرباء من أولئك المسافرين الذين أجبرتهم الأمطار على التوقف في تلك البلدة، وجماعة من البدو الذين باعوا ما معهم. وأرادوا أن يقضوا يوماً أو يومين للاكتيال. كان يحاول إقناعهم بأنه من المحاربين القدامى، وأنه حصل بينه وبين الترك منازلات كثيرة، وكان يحاول أن يثبت ذلك، ويدعمها بهذه المشية العسكرية الرهيبة.

يصيح بأعلى صوته: (للأمام سر.. للخلف در) يقول ذلك وهو يلمح عيون الرجال وهل هم صدقوا ذلك أم لا. وعندما يشاهد الرخاوة وعدم التصديق يزيد عدة خطوات غاضبة. ولكن عندما يئس منهم زاد انفعاله، وغار عليهم بعصاه وهو يلعن من عرفهم على الحفرة، وقد فروا من أمامه كما تفر الغزلان من سطوة الأسد.

الجنون بدأ يعمل هذا اليوم، هل هو تعبير عن الانعتاق أم رغبة في التحدي؟. الأمر في الصحراء سيان ما دام الفقر يرسم خطوطه على محيا تلك الأشلاء البائسة، التي أرادت أن

تحيا على طريق الموت.

أصحاب الخشونة والضياع والمعدمون المنسيون الذين يحملون القلوب الشيطانية، لا يطمئنون ولو أكلوا فريسة، ويعتقدون أن هذا الصفاء ما هو إلا استدراج لأن هناك خطيئة ما ستحدث، لماذا؟.

لأن العدوانية والتواطؤ عادة متأصلة، كأن الصحراء تقول لهم: جلد الذات ومقارعة الآخر شرط أساسي من شروط البقاء ، وإن حب الفضيلة وتكريم النفس ومحاورة الآخر، من الصفات التي تتميز بها الأراضي الرديئة والخضراء المائية.

الجديد في بلاد الشمس والتراب يعتبر (آخر) والآخر كافر، والكافر يجب أن يذبح، والذبح حق، والحق مجهول، علمه عند خالق الصحراء، ولا يذبح إلا للخالق.

هذا ما كان يتخيله عن الحفرة أحمد العبد ربه عندما خرج لأول مرة بعد الجلد، وبدأ يشم رائحة المطر، ويشاهد آثار الهدام، يتوقف أحيانا، ويشاهد كومة من الطين، ويقول: (هذه الكومة كانت بيتا يوماً ما، كانت بيتاً طويل القامة، كانت قلعة ولكنها انهارت). كان يقول هذا وهو ممسك بظهره المحطم وأضلاعه المهشمة. كان يقول أيضاً: (إنها عقاب عليهم ولكنها أتت بقوة).

الفصل الثالث

في الصباح الثالث والعشرين دبّت الحياة في الحفرة، وبدأت البضائع ترد إليها من جميع الجهات، ولو أن في قلوب الناس خيفة لأن السماء ما زالت ملبدة بالتشكيلات الصغيرة البنية، إلا أن الجفاف السريع ساعدهم على الامتداد والارتخاء.

من الجهة الغربية وفدت قوافل الحمير محملة بالمنتجات الزراعية الهزيلة وخاصة البرسيم، وما تبقى من محصول التمر المتأخر عن الجداد.

من الجهتين الشرقية والشمالية جاءت الإبل والأغنام، والكل يتوقع أسعاراً جنونية، وأنها فرصة العمر.

التجار والسماسرة على اختلاف مشاربهم مستعدون لمعارك الأسعار الطاحنة، والكرّ والفرّ ومخاتلة البائعين والمشترين.

أصحاب البضائع متمسكون بأسعارهم، والآخرون يحاولون حلحلتهم، والمؤامرات تحاك، والتحالفات تعقد، والأصوات عالية، والحراج قائم، والإبل المتوحشة أصيبت بالذهول، وحاول عدد منها الهرب، ولكنه يوجد من يستطيع إعادتها وبثمن معلوم.

كان صيّاح غارقاً مع الجميع يحاول كما يحاول آخرون في إبراز البراعة التجارية التي تعتبر كما قال هو: (أم المراجل) وقال مرة: (نأخذها من فم الطير) وكان يقول في مناسبات عديدة: (إن ما تغديت بهم تعشوا فيك النشامى).

كان هذا اليوم يوماً من أيام العرب، تعالت الأصوات، واشتدت النـزعات التي أدت في بعض حالاتها إلى تمزيق الثياب، وسيلان الدم من الوجوه والأيدي، وأدت التدخلات الخيرية والشيطانية إما لفك اشتباك ما أو تأصيل النـزعات مرة أخرى.

في طرف السوق وعلى يمين الزحام، وفي جهة الإبل بالتمام كما توقعها الطفيليون ومثيرو الفتن، كانت تدور رحى معركة بين رجلين تصدر منهما أصوات كرغاء الإبل، انطلقوا ليتبينوا الخبر، وإذا هم بصيّاح "أبي بليهان" و"دمعان"، كل واحدٍ منهما ممسك بجلباب الآخر والدماء تسيل حتى الركب، وجيوبهما ممزقة، وكلاهما يقسم بالأيمان المغلظة أن يذبح صاحبه اليوم قبل الغد، عندها حاول بعض الرجال فك الاشتباك المميت، وذلك بشق الأنفس، وحاولوا تهدئتهما، أما الطفيليون ومثيرو الفتن فكانوا متلذذين بهذه الفرصة الثمينة التي لا يمكن تفويتها.

كان الاشتباك سببه ناقة اختلفا عليها، كل منهما يدعي أنه اشتراها قبل الآخر.

كان صيّاح يقول: (والله يا جماعة الخير إني شاريها قبل ما يشوفها، ولكن يوم دري آني مشتريها رخيصة وما عطيت راعيها إلا العربون، راح الملعون يم راعيها وزاد السعر، وأنتم كلكم تعرفون دمعان).

صمت قليلا وبدأ ينفض التراب والغبار عن ملابسه الممزقة، ثم استطرد قائلاً: (الظاهر إنكم ما نسيتوا يوم هو يدور على الناس ويحرضهم على خشمان وطقته، بدل ما يكف الشر راح يزيد النار، وأنتم تعرفون اللي حصل زين).

قال عيد الساكت: (حنا عارفين يابو بليهان ولكن ما نبيك تعير عقلك لهذا الخبل لعن الله سلسفيله).

أبو شلهوب كان حاضراً وساعد في فك الاشتباك، حاول تهدئة أبي بليهان بقدر الإمكان وهو عاتب جداً على صيّاح، يقول: (وشلون يابو بليهان تحط رأسك برأس هالملعون، سروق وحرامي ومرابي بعد، يكفيه خزي في ذاك اليوم، يوم إنه يبع الخيام قدام الله وخلقه تف من زول يشبه زول إبليس).

"حميد الصقار" كان منفعلاً جداً ويود لو قتل دمعان ولكنه قال: (أخاف يأخذون دمي بدمه، ودمه ما يساوي قرش، وإلا والله الذي لا إله غيره ما أخليه يشم الغربي، ولكن أبيكم تعرفون إني ذابحه ذابحه اليوم أو اللي عقبه).

وأردف قائلاً بعد صمت قليل: (إختي مضاوي أم خشمان تدعي عليه طول الليل بالخاتمة السوداء).

في الوادي الرملي الصغير الذي يقع بالقرب من سور الحفرة الشرقي،كان المدير عبدالله الحمود والأستاذ الجديد الذي لقبه الطلاب بـ"المستر كاكي" كانا يتسكعان، كلاهما واضعان يديهما خلفهما ويسيران ببطء، وخاصة أن هذا اليوم يوم عطلة رسمية لأنه يوم الجمعة، ولو أن طيلة أيام الهدام كانت عطلة نوعاً ما، هذا بالنسبة للطلبة الذين تهدمت بيوتهم، أما هذان الأستاذان فإن الأمطار كانت فسحة لهما، لأنهما كانا يسكنان البيوت المكيفة والمحصنة، هكذا (فضلنا بعضكم على بعض).

كان الأستاذ (كاكي) متلهفاً لسماع بقية القصة لأنه يعتقد أن اكتشاف الصحراء يبدأ من أواخرها، لذلك كان يهتم كثيراً بالنهايات.

قال الأستاذ "كاكي": (يا أستاذ عبدالله لو أكملت لي بقية الأحداث وخاصة نهاية دانيال التي كنت أفكر بها طول الوقت؛ لأن النهاية يا أستاذ عبدالله تؤدي إلى كشف الملفات السرية، والملابسات المبهمة التي أعيت من يداويها).

قال الأستاذ عبدالله: في يوم السبت الذي أتى بعد الجمعة الحزينة، اَستدعي دانيال إلى مقر الإمارة واستدعيت أنا أيضاً بطلب من الأمير شخصياً لأقوم بدور الترجمة بين الاثنين؛ لأن الأمير لم يعتد على اللهجات الأخرى والغريبة التي لم يسمعها. حضر دانيال أمام الأمير لابساً بنطلوناً أسود وسترةً حمراء ورابطاً كرفتةً في عنقه،كان شعره مصفوفاً صفاً جيداً وعليه بعض الدهانات. كان دانيال حليق الذقن والشارب، فوجئ الأمير من ذلك المنظر وكان يريد أن يرى أي علامة بارزة تميزه عن المرأة، لم يستطع أن يرى شيئاً، وقف مندهشاً وقال: (عوذه.. عوذه ول من شيفة هذا هو "دنان" يا أستاذ عبدالله وإلا حرمته؟).

- (هذا هو يا حضرة الأمير بعينه).

سأل الأمير: (وش اسمك الكامل يا "دنان"؟).

لم يفهم دانيال السؤال، وإنما رد على الأمير قائلاً: (شو عم تحكي): كان خائفاً مرعوباً مما شاهد أمامه،لا سيما هؤلاء الرجال الذين حملوا سيوفهم وكانوا يقفون خلف الأمير.

تدخلت أنا وفسرت لدانيال السؤال الذي سأله الأمير.

أجاب دانيال: اسمي يا طويل العمر (عبدالمجيد أحمد أبو كحلة).

أصيب الأمير بالدهشة عندما فهم الاسم واضحاً، وقد تأكد أن هذا الاسم ليس غريباً، ولا بد أن يكون اسم شخص مسلم.

سأل الأمير (أنت مسلم ولاّ نصراني؟).

عبدالمجيد: أنا مسلم طال عمرك.

رد الأمير بسرعة وحزم: (تعقب.. وكذاب.. والله إنك ملعون ولد ملعون).

سأل الأمير: (هاه قل لي.. ومنهو اللي دزك علينا؟).

كان الأمير يسأل وهو واقف أمام عبدالمجيد وقفة حازمة، وقد بدأ يبرم شاربه بأصابعه زيادة في إثبات الشخصية.

لم يفهم عبدالمجيد السؤال، وتدخلت أنا وبدأت أفسر لعبدالمجيد سؤال الأمير.

رد عبدالمجيد: (لم يرسلني أحد وإنما أتيت للمشاركة في تعليم أبنائكم، ولأننا يا طويل العمر وطن عربي واحد).

نظر الأمير إليَّ طلباً للمساعدة في تفسير الإجابة، حاولت عدة مرات تفسيرها للأمير ولكنه لم يفهم.

سأل الأمير: (كيف قل لي نكون وطن واحد؟، حنا بدو وهم دراويش، ما يصير هذا، هذا الكلام وراه شيء).

توقف قليلاً وبدأ يبحلق بالأستاذ عبدالمجيد ليقرأ في وجهه مدى صدقه ثم قال:

(والله إني عارف إن هالعيون الزغر ما جت حب لنا، والله إنها عيون الملعون، والله إني أقول إنه طامع في وطنا).

سأل مرة أخرى: (زين، وش تدرس بالمدرسة؟).

قال الأستاذ عبدالله الحمود: يدرس اللغة الإنجليزية، صعق الأمير من هذا الخبر، وضرب كفاً بكف.

قال: (وهذي الثانية.. الأنجريزي.. الأنجريزي يا عبدالله، فاتت عليك يا عبدالله، يحدث هذا بالمدرسة تحت عينك وساكت يا عبدالله، وش بقى ما سواه شبيه إبليس هذا؟).

قال عبدالله الحمود: هذه مواد قررتها وزارة التعليم ولا دخل له بذلك، وبالنسبة لي فأنا رجل حكومة يا طويل العمر، أنفذ ما يأتي من الوزارة، كما أنك تنفذ أوامر السلطان طال عمرك، وإن مادة الإنجليزي تدرس بجميع مدارس الدولة بشرق البلاد وغربها.

هدأ روع الأمير، وأدرك أنه صار بنظر الجميع لا يفهم شيئاً، تناسى الأمر وحاول توجيه الأنظار بسؤال سريع: (وش تجتمعون عليه أنت والكلاب، هذولا الجذاعين، اللي ضربناهم بالسوق أولة أمس؟، وأبي منك تقول الصحيح).

أجاب عبدالمجيد: بعدما فسرت السؤال قال: ليس لي علاقة بهؤلاء الناس، وإنما يأتون أحيانا إلى بيتي يسألون عن بعض المواضيع الدراسية التي لا يفهمونها وتحتاج إلى توضيح، ومن ثم أقوم بتوضيحها لهم.

نظر الأمير إليّ طلباً للتوضيح، ولما عرف الإجابة سأل: "بس؟".

أجاب عبدالمجيد: بس يا طويل العمر، وأقسم على القرآن بأن هذا كل ما حدث.

أثناء الحوار دخل الحارس وأسمع الأمير كلمات لا نكاد نسمعها قال: (هذولا طال عمرك ادحيم السعد وعبدالكريم الشلوة واقفين بالباب ويبغون مواجهتكم لأمر هام).

قال الأمير: (خلهم يدخلون بالمجلس الأيمن).

بعد قليل طلب منا الأمير الانتظار لحظة حتى يعود بعد مقابلة هذين الرجلين.

كان دحيم السعد مدرساً بالثانوية وأظنك تعرفه يا أستاذ.

قال الأستاذ: نعم أعتقد أنني أعرفه، أليس ذلك المعلم صاحب العين الواحدة؟.

قال المدير: بلى هو بعينه.

واصل المدير عبدالله الحديث حيث قال: هو من أقرباء البعيرصي وله مكانة جيدة، ويرتبط معه بعلاقات ومصالح وشراكة قديمة خاصة بالمجالات الربوية، أما عبدالكريم الشلوة فهو تاجر ومرابٍ أيضاً، والجميع بينهم علاقات قوية جداً.

لدينا مثل يقول: (هذا ينيشن وهذا يرمي).

عبارة تدل على الاشتراك في صيد الفريسة.

كان الثلاثة يشكلون حلفاً قوياً وسوقاً مشتركة واحدة، ولم يسلم أحد من شباكهم، حتى المزارعين صودرت مزارعهم لعجزهم عن تسديد الديون التي تراكمت عليهم، ودائماً ما تسلب حقوق الناس زوراً، والشهود مستعدون في كل الأوقات والمناسبات.

أما البعيرصي فيظل بعيداً عن الأنظار، ويتمتع بالزهد والاستقامة، ولا يقبل أبدا بسواقط الدنيا التي تؤدي دائما إلى سوء المنقلب.

عرفت فيما بعد ما دار بينهم وبين الأمير في مجلس جمعني مع الأستاذ دحيم السعد لاحقا.

قال الأستاذ: ماذا دار بينهم يا سيادة المدير؟

اتجه الأمير إليهم في المجلس الأيمن، قام الاثنان وسلما وقبلا رأس الأمير وأَنفه، وباشرهم الأمير بالسؤال عن صحتهما وأحوالهما، ثم سألهما عن الأسباب التي دعتهما إلى المجيء بهذا الوقت.

تكلم دحيم السعد وقال: (يا طويل العمر هذا "دنان" الكلب ترانا شاكين فيه من زمان، ولا نستطيع أن نتهمه بشيء قبل أن نحصل على الدليل القاطع، ويوم توفر لنا الدليل اللي ما يحتمل الشك جينا، وهذا الأخ عبدالكريم الشلوة يخبركم باللي حصل من هالشيطان).

سأل الأمير: (هاه يا عبدالكريم وش عندك؟).

كان عبدالكريم مطأطئاً رأسه زيادة في التواضع والمسكنة، واضعاً يديه على ركبتية والدموع تنحدر على خده، ويردد: (لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله) تحمس الأمير لسماع ما يريد أن يقوله عبدالكريم.

- (هاه قل وش عندك يا رجل؟).

كانت تخنقه العبرة، ولكنه قال بصوت ذليل وضعيف:

(هذولا جيران "دنان" يا طويل العمر، أكدوا لي أنهم شافوه من ثقب بالجدار واقف قدام صورة شيطانة معلقها على الجدار ويبكي ويتفوه بكلمات وبربرة ما تنفهم، ويقف الساعة والساعتين قدامها، الله العالم إن "دنان" يعبد الأصنام يا طويل العمر، ويوم إنهم سألوه عن هالصورة قال هذي صورة معشوقته، ويدخل مخك يا طويل العمر مثل هالكلام؟).

كان عبدالكريم الشلوة يقول هذا وهو يسترق النظر إلى وجه الأمير ليقيس مدى التأثير، ولما تأكد أن الأمير مشدود إليه ومتحمس، تظاهر بالورع والتقوى وبدأ يبكي ويردد: (لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله). (ثم إنه يا طويل العمر يشرب الدخان، ويتظاهر بالصلاة، ويأتي للمسجد بالبنطلون، هذا يرضي أحد يا طويل العمر؟ هذا يرضي أحد؟ وأنا يا طويل العمر جيت يمكم نذير قبل ما يقع الفاس في الراس، اللهم إني قد بلغت.. اللهم إني قد بلغت).

لما تأكد دحيم السعد أن الأمير يصغي جيداً، أحب أن يضيف شيئا فقال: (وأنا يا طويل العمر يوم شكيت فيه بدأت أراقبه بالمدرسة، وخاصة بالفصل، وأسمع ما يقول للطلبة لأنني يا طويل العمر مُدرس للفصل المجاور، كان يبربر باستمرار ولم أفهم كلمة واحدة ما عدا يوم واحد سمعته يقول (تيوس.. دي) وإن ما خانتني الذاكرة يا طويل العمر، فإنه يحضر الجن وإن شياطينه مجموعة من التيوس يلاعبهم ويلاعبونه أمام الطلبة، دون ما يشاهد الطلبة تلك الشياطين، ويدعي أنه يعلم الطلاب الإنجليزي، ولكنه يا طويل العمر يسحرهم على شان يكونون أتباعاً له فيما بعد).

كاد الأمير ينفجر من الغضب، وقال: (أخس يا عدو الله، كل هالأمور إتحدث منك يا دنان، وحنا لك الله ما ندري، لكن الشرهة على المدير عبدالله الحمود، كيف يكون غافل؟ زين. زين هالحين روحوا والباقي خلوه علي).

قال المدير: عاد الأمير إلينا وهو غاضب أشد الغضب. كان يملأ المكان ذهاباً وإياباً وهو يضرب كفا بكف، وينظر إلى المسكين نظرات حاقدة، وقد خفت في تلك اللحظة، وأنا أصدقك القول في ذلك.

قبل مجيء الأمير بلحظات كان الأستاذ دانيال يعاتب نفسه أمامي وكان يقول: (لماذا أتيت إلى الصحراء؟ وما علاقتي بهؤلاء البدو المجانين؟ ولكنه القدر الذي شاء أن أكون هنا. إن هناك فاتورة يجب أن تدفع، إن ثمن الحرية التي نطلبها غالية جداً، لا بد أن أتحمل، لا بد أن أقاوم لآخر لحظة).

كان يقول هذا وهو يرتجف من الخوف، وقد تغير لونه وتحول أَصفر، لا يعلم ماذا تحمل له المسافات القادمة.

اسمع يا دنان: كان يقولها الأمير حمود البتاع وهو يتوقف فجأة وجها لوجه أمام دانيال (لك الثلاث المهربات اليوم وباكر واللي عقبه، وبعدها جهز حالك على شان يمرونك إخويانا وتغادرنا بسلام، أنت سامع ولاّ لا؟).

قمت بتفسيرها للأستاذ دانيال وقد حفظها جيداً، وأحسست أن نفسه كاد ينقطع من شدة الخوف، وكنت أَنظر إليه وهو يحاول أن يفهم ما قاله الأمير.

قلت لنفسي: هذا هو صاحب الأحلام الكبيرة الذي أراد أن يهزم الجهل، ويصبح صاحب اللبنة الأولى، انهزم في أول مواجهة!، لهذا فهمت من هذا الوقت أن الكلمات الكبيرة التي نرددها دائماً في جميع المحافل، لا بد أن يكون خلفها هزيمة سهلة!.

قال الأستاذ كاكي: هل تعرف السبب الحقيقي أمام هزيمة دانيال السهلة؟

قال المدير: لأنه واجه الجميع بدون سلاح حقيقي يعطيه الحق بشن الحرب.

- لا يا أستاذ عبدالله، وأنت الصادق، لأنه لم يبدأ باكتشاف الصحراء أولاً.

أضاف قائلاً: جميع الأعداء الذين حاربونا وهزمونا قاموا باكتشافنا أولا، ثم حاربونا بالسلاح الذي يستطيع قتلنا، لذلك انهزمنا ببساطة وبأول جولة جلناها معهم.

سمع الأستاذ عبدالله الحمود ما قاله الأستاذ كاكي، وقد حبس في فمه ضحكة وكلمة كادت تخرج لأنها تقول: (ما لحفرتنا يتوافد عليها المهزومون!).

قال المدير في مداخلة سريعة ورداً على الأستاذ كاكي: أعتقد يا أستاذ أننا نعيش داخل وهمٍ لن نستطيع الخروج منه، وهمٍ يقول:

(إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً ... تخر له الجبابر ساجدينا)

ولم نمنح عقولنا فرصة للتفكير في المشوار الطويل الذي يجب أن نقطعه للوصول إلى هذه الفكرة.

اختصرنا الطريق وحاربنا بفطيمنا الذي اختنق من صوت أول طائرة اخترقت الحاجز.

- (بس يا أستاذ بلدنا فيها حتة زعيم يستطيع أن يقود كل الصحاري والقفار بمعركة حاسمة تقذف كل الجواسيس والعملاء في البحر)!

رد المدير عبدالله قائلاً: يا أستاذ "كا" ولم يكمل اللقب الذي سماه الطلبة وكاد يقع في ورطة لولا أنه انتبه.

توقف قليلاً ثم واصل قائلاً: بس قايدكم فطيم.

- ما له يا بيه، مادام الجميع خلفه.

رد الأستاذ عبدالله: خلف فطيم يا أستاذ؟ وماذا إذا يكون الجميع خُدَّج؟. في اليوم الرابع كان الأستاذ دانيال مستعداً للسفر، هكذا واصل المدير حكايته مع الأستاذ كاكي وقال: كانت تلعب به الهواجس وعدم الاطمئنان، كانت عدة أفكار تراوده وخاصة أنه في هذه اللحظة كان وحيداً والجميع تخلوا عنه، حتى زملائه خوفاً من أن يطولهم عقاب، وبصفتي مدير المدرسة حضرت إليه بالساعة الأخيرة.

لا يعلم بأي طريقة سوف يسافر، ولا يعرف الرجال الذين ذكرهم الأمير لأنهم سيسافرون معه، وهل هؤلاء الرجال سيتركونه وشأنه، أم لديهم نية في عمل أي شيء آخر؟، عبر لي عن جميع تلك المخاوف، وبالطبع قمت بالواجب وأكدت له أن الأمور ستكون بسيطة جداً، أقل مما يتصور، وأن الرجال سيقومون بتوصيله إلى أقرب نقطة يستطيع منها أن ينطلق إلى بلاده.

كان المسكين متشائماً جداً ولا يعرف كيف يواجه الأمور.

في أثناء حديثنا توقفت سيارة أمام البيت، خرجنا نستطلع الخبر ومنها عرفنا كل شيء، وقد توقعت أشياء كثيرة ربما تحدث، عندما شاهدت تلك الناقلة القديمة وقد نزل منها الرجال المسلحون، كانوا اثنين بالإضافة إلى السائق أبي شينان خوي من خويا الأمير، عنيف وقليل الصبر، والثاني أبو عربود وكان رجلاً أشبه بضب يقاتل على أي شيء، نزلوا من الناقلة وطلبوا منه أن يركب بالصندوق ويحمل جميع أغراضه.

قال أبو شينان وهو متكئ على البندقية: (أقول يا درويش شل كل أغراضك ولا تنس صورة الشيطانة.. خذها معك).

من شدة الارتباك والخوف لا يدري ماذا يعمل، وكأنه توقع ما سيحدث وأن الأمر جدي وأن هناك عذاباً ينتظره.

كان يسأل ويقول: (كيف أركب على هذا الصندوق ولوين أروح؟ شو هالمصيبة اللي يا أستاذ أنت تشوف ما أشوفه؟).

قلت له: (توكل على الله يا رجّال واركب ولا أعتقد إنك ستموت).

ركب المسكين بالصندوق بعدما حمل جميع أغراضه وودعني الوداع الأخير.

سأل الأستاذ كاكي: هاه وبعدين يا أستاذ إيه اللي حصل؟

تحركت السيارة برحلة عذاب، كنت أشاهده بعيني لأنني أعرف الطريق وأعرف النقطة التي سيقذفونه فيها، إنها تبعد يا أستاذ ألف ميل بطريق غير معبد، وبسيارة لا أعتقد أنها ستصل بسهولة، وكنت متأكداً أن الرمال سوف تتراكم عليه وتملأ الصندوق، وسوف تكون قبره.

بدأت السيارة تبتعد عن ناظري وهي تشق طريقها، كنت في البداية أشاهد يد دانيال وهو يرفعها للوداع، ولكنها غابت عني، وانحدرت السيارة في خطوة البداية للألف ميل البعيد.

كان أبو شينان معه رسالة أطلعني عليها قبل المغادرة كانت تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

رئيس الحد الشمالي... حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد

يصلكم مع رجالنا شخص اسمه (عبدالمجيد أحمد أبو كحلة) حسب أوراقه الشخصية والملقب لدينا "دنان" فإن وصل إليكم سالماً يجب ترحيله إلى بلاده بإحدى الشاحنات المغادرة مع أمتعته، وصورة الشيطانة التي بحوزته.

أمير الحفرة

حمود البتاع

بعدها لا أعرف ماذا حصل له، ولم أستطع أن ألتقي بالخوي أبي شينان أو أبي عربود، ولا أعرف القصة كاملة، وكما تعرف السيول هذه الأيام لخبطت أوراقاً كثيرة، خاصة أنني عرفت لاحقاً أن الاثنين وصلا الحفرة بسلام قبل الهدام بيومين.

توقف الأستاذ كاكي لحظة وشد جسمه ومد رقبته وأدار وجهه ناحية المدير وقال: (أما جماعتكو يا أستاذ عبدالله ما عندهاش لعب عيال، إزاي دا يحصل؟).

رد المدير قائلاً: (النصيحة التي يجب أن تعرفها جيداً يا أخي، أن لا تقدم على عمل بوسط تجهله؛ لأنك في هذه الحالة لا تعرف قواعد اللعبة، ومن ثم تأتي على رأسك.

كاكي: بس يا أستاذ دا مش أبل ما أكتشف الصحراء وبعدها نفكر.

عبدالله: عندما تريد أن تكتشف الصحراء لا بد أن ترعى الجمال أولاً.

كاكي: لماذا؟

عبدالله: لأن الجمل هو المعلم الأول، وعندما تجتاز الامتحان بنجاح يحق لك أن تكتشف الأشياء كلها.

كاكي: إذا كان ولا بد يا أستاذ عبدالله أرعى جاموسة.

عبدالله: الجاموسة يا أستاذ لا تصلح هنا، وسوف تموت بسرعة قبل أن تعلمك حرفاً واحداً.

كاكي: حيرتني يا أستاذ عبدالله، وجعلتني أنظر إلى هذه الوديان السحيقة بصعوبة.

عبدالله: الجميع قبلك احتاروا بأمرنا، حتى الاحتلال عندما حاول احتلالنا كدنا نحتله حتى نجا بنفسه!.

كاكي: تؤصد مين يا أستاذ عبدالله؟

عبدالله: طوسون ولد محمد علي باشا كاد أن يموت عطشاً.

كاكي: ولكن إبراهيم باشا عاد.

عبدالله: عندما عرف قواعد اللعبة يا أستاذ، واستطاع أن يلبس أنياب ذئب ووبر جمل، ومع هذا رجع بسرعة قبل أن يموت عطشاً.

كاكي: جعلتني يا أستاذ عبدالله أفكر كيف أُدرس اللغة الإنجليزية.

عبدالله: سوف تدرسها بسهولة، ولكنهم سوف يتكلمون باللغة الصحراوية.

كاكي: كيف؟

عبدالله: سوف يجبرون اللسان الإنجليزي أن يكون بدوياً يقود جملاً غصباً عن أنفه وإلا قتل.

كاكي: عندما أسمع هذه الأفكار يا أستاذ عبدالله، وأسمع بالمقابل ذلك الرجل الذي هاجم البرئية أحتار بالأمر، وكلما حاولت أن أكتشف ابتعدت عني الأشياء كثيراً، إنكم تمارسون المتناقضات بكل معانيها بدون مؤاخذة يا أستاذ عبدالله.

عبدالله: المتناقضات التي تقول عنها يا أستاذ هي التي حملت الصحراء إلى أقاصي الأرض، وأصبحت لا تغيب عنها الشمس.

كانت حضارة، وكانت عملاقة، ولم تكن هكذا وإلا لما بدأت تقيس المسافات خطوة بخطوة وتسير على طرق محسوبة، وعندما توقفت وبدأ الخلل يسري وانتصرت متناقضة على أختها، انسحبت إلى الداخل وقبلت الهزيمة مقابل الغنيمة.

وصلوا في نهاية النـزهة إلى نقطة يستحيل اجتيازها وتوقفوا أمام حافة سؤال، سيبقى سؤالاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو:

لماذا الهجرة؟ وما الفرق بين الصحراء والصحراء المقابلة؟

وأخيراً اقتنعوا بأن الحياة ما هي إلا مسافات محددة يجب قطعها بأي طريقة، ولو اعتليت رجماً، لأن النهايات أمر واقع، أما الذين يفرشون الطريق بالزهور والسجاد، فإنهم يهربون ولكن إلى الخلف، وما دار في مخيلتهم أن في الخلف نهاية أيضاً.

قال الأستاذ كاكي: باعتقادي يا أستاذ عبدالله أن صحراءكم فيها شمس وصحراءنا فيها نهر، وشمسكم تسرق ماءنا وتمطره لكم، ولكنكم لا تستفيدون شيئاً.

عبدالله: ولكن يا أستاذ بدأنا نستفيد من المطر الذي يأتينا من تحت الأرض، وبالمستقبل سوف يلغي جميع الأمطار، عندها سوف نشحن لكم الشمس هدية.

كاكي: وتستغنون عنها يا أستاذ عبدالله؟ الشمس هي الشمس، سوف تعودون وتطلبونها منا، ولكن بعد فوات الأوان وتنسون طريقة تشغيلها، ومع هذا: لماذا الهجرة؟.

في الجهة المقابلة من السوق كان يجلس المرابون وأصحاب الدفاتر على فراش ممدود، يرقبون السوق كالوحوش الكاسِرة التي تتربص بالفريسة، كانوا يهرشون أجسامهم

ويتحينون وقوع الفريسة بين أيديهم، من هؤلاء الفقراء الذين تضطرهم ظروفهم للاستدانة، كان أبو شينان يجلس معهم، أتى يستدين مهراً لزواج ابنه الأكبر، كان أول المذبوحين، وكُتب عليه دين أضعافاً مضاعفة، وشهد عليه الشهود وتمت الصفقة، وكان لا يعرف ماذا كُتب عليه بهذه الدفاتر، لأنهم بدؤوا بتشتيت أفكاره حتى كُتب عليه ما كُتب، ولأنهم يعرفون كيف يكتبون، ويعرفون أيضاً القيمة التي يريدونها، كانت البضائع الموجودة في دكاكينهم يتم تداولها منذ سنين، وهي طريقة شيطانية للتحايل على الربا المباشر.

أثناء الكتابة كانوا يسألونه عن أخبار "دنان" وما هي الخاتمة النهائية لهذا الغريب الذي خرب أبناء الحفرة وحرفهم عن الطريق القويم.

كان يسأل كبير المرابين: (ما قلت لنا يا أبو شينان وش صار على الخبيث؟ وصلتوه المركز أو مات بالطريق؟).

- (أبشرك يالخو إننا وصلناه وسلمناه لرئيس المركز).

كانت الألف ميل قطعت بخمسة عشر يوماً كما ذكر، وكان الأستاذ بالصندوق طوال المدة. ذكر أنه في الخمسة أيام الأولى لا يأكل ولا يشرب ولا يهتم بنفسه، وأصبح مهموماً ثائراً لا يتحمل مواجهتهم، وقد زادت عليه الأوجاع ويسمعون أنينه باستمرار، ولا ينـزل من السيارة إلا قليلاً، وعند اللزوم فقط، وذلك عندما يتوقفون لعمل الطعام أو القهوة. كان أبو شينان يذكر هذا وينظر إلى وجوه الجالسين ليشاهد بوجوههم آثار الحدث، وهل هم صدقوه أم يحتاج الحديث إلى مزيد من الحماسة والإثارة، وعندما شاهد الحماس الزائد والمصطنع في وجوههم، واصل الحديث بطريقة أشد إثارة، أخبرهم بأن الرجل في الخمسة أيام الثانية تغير تماماً (يا ليتكم يا جماعة شاهدتوه على الحال).

يتساءل أحد الجالسين: (زين... زين... وش بعد؟) كان المتسائِل يحثه على مواصلة الحديث ليتسنى للكاتب أن يتمم عملية الكتابة بدون تدخل.

- (في الليل وعند النوم يستمر الطاغوت يبكي ويتوجع). هكذا واصل أبو شينان الحديث ثم قال: (طول الليل ما ينام أبداً).

كان يذكر لهم أن لونه تغير وتحول إلى السواد، وشعره الذهبي اللامع تحول إلى طلحة خشنة ممتلئاً تراباً، وأصبحت عيناه زائغتين وحزينتين، وهزل جسمه كثيراً، تقدم عن عمره عشر سنوات.

قال أبو شينان: (والله يا جماعة إننا خفنا عليه). ذكر لهم أنه زاد تعبه وأصبح مريضاً وفي النهاية بدأ يضحك ويبكي في آنٍ معاً ثم بدأ يغني ويرقص، وعندها تحققوا من جنونه.

بعد ذلك انتهى بهم الأمر إلى ربطه بالسيارة خوفاً من ارتكاب حماقة، وصارحهم القول أيضاً بأنهم خافوا على أنفسهم، وبالذات لما عرفوا أنه يستخدم السحر والجن.

وقال أيضاً: (والله يا جماعة إننا خائفين من شياطينه، طول الطريق وحنا نقرأ القرآن على أنفسنا). كان أبو شينان يتكلم ويروي القصة بكل حماس، ويدعم كلامه بحركات من يديه وعينيه، مما جعل الحاضرين يتشوقون أكثر لسماع البقية، وما أسفرت عنه تلك المأساة، قال: (الرجّال صار بالتالي مثل الخروف). مما جعلهم يحثون السير لعلهم يصلون بأسرع وقت ممكن؛ لأنهم خافوا من الشياطين تصل إليهم، وصلوا المركز بسلام والطاغوت لم يمت بعد، ولكنه كخروف.

وقال أيضاً: (سلمنا رئيس المركز هالجثة الحية والصورة وكل ما يخص "دنان" وكذلك رسالة الأمير).

ذكر لهم أن رئيس المركز تأكد من جميع الأشياء وفرزها جيداً واستلمها منهم، وكتب معهم رسالة استلام يذكر فيها أنه سوف يقوم باللازم بأقرب وقت.

بينما يواصل أبو شينان روايته الأليمة عن تلك الرحلة، كان في الزاوية الأخرى من السوق جماعة يفترشون الأرض، غالبيتهم من السماسرة القدامى المتقاعدين عن العمل، وقد عاشوا زمناً غادر بعدما رسم على وجوههم المعاناة الصحراوية، الكثير منهم يحمل بصمة تركها ذلك المغادر، وكان يجلس معهم بعض الأغراب من البدو الذين باعوا ما معهم واكتالوا طعامهم من السوق، وتفرغوا لتبادل المعلومات الجديدة عن الأمطار وما الذي دمرته، وكانوا حريصين كل الحرص على معرفة أخبار بطل الحفرة "خشمان ولد مضاوي".

سأل بدوي قائلاً: (وشو من لحية؟ هو طول السلطان أو أقصر شوي؟).

سأل آخر: (هو كريم ولاّ بخيل؟).

كانت الإجابات من الجالسين مبهمة، وكانت تشبه تلك الإجابات السياسية، حاولوا قدر الإمكان أن لا يقولوا شيئاً صادقاً ولا شيئاً كاذباً، مترددين بالرد وهم يلتفتون يمنة ويسرة.

ولكنْ ذلك الرجل ذو الثمانين عاماً استطاع أن يجيب عن الأسئلة بإجابات حذرة ومدروسة ومموهة أيضاً، قال: (يا بدو الله.. يا جماعة الخير، حنا قلنا خشمان ما هو حاكم ويعقب ما يطول الحكم.. والله.. والله أنه قطعة مهندسي للسيارات وثيابه غرقانة زيت).

كانت القناعة من تلك الإجابة تساورها الشكوك، وكان البدو ينظرون إلى جلسائهم من السماسرة المتقاعدين نظرات عميقة، تنفذ إلى الداخل لعلهم يأتون بالإجابة من الأعماق، كانوا يستنجدون بأطراف شواربهم وحثها على المشاركة باكتشاف الخبر.

سأل أحد الجالسين من السماسرة القدامى سؤالاً لعله يستطيع الخروج من هذا المأزق، قال: (وش أخبار الأمطار قدامكم؟).

أجابه بدوي: (الأمطار واجد والدمار أكثر، والله يجعل العواقب حميدة).

سأل ثانية: (وش مشى من الشعبان؟).

أجاب بدوي آخر: (كل شعبان الشمال مشت وفيضت شرق، والحياء ظاهر والخير مقبل).

كان البدو يتكلمون وتنبعث من ملابسهم وأجسامهم رائحة البقل والسمن المختلطة برائحة العرق؛ لأنها أضافت على المكان لوناً رومانسياً يشجع على الاستفراغ، مما حدا بأحد الجالسين أن يغادر المكان، حيث تنفس الصعداء بصعوبة بالغة، وقد لعن كل المجالس التي يحضرها بدو.

الفصل الرابع

في صباح اليوم الرابع والعشرين تكاثرت الغيوم قليلاً وبدأت السحب تلتحم مع بعضها بهدوء، هطلت منها بعض الأمطار المتفرقة والخفيفة، كان الناس ينظرون إلى السماء بترقب وحذر يسألون عن الآتي، والجميع يلهجون بالدعاء أن تأتي بلطف، كان الكثير منهم يفكر بالعودة وخاصة أولئك الذين تأكدوا من بيوتهم في الليلة السابقة، ولكن هذه السحب بدأت تتفرق شيئاً فشيئاً عندما بدأت الشمس تتحرك إلى أعلى.

في هذا الصباح الغريب سرت بالسوق أخبار تحتية قد وصلت إلى الآذان بصمت شديد، ولم يأت الضحى حتى سمعت كل الآذان بهذا الخبر السار والمقلق، هذا الخبر السري يقول: (إن الأمير حمود البتاع غادر الحفرة في وقت مبكر من هذا الصباح إلى مدينة السلطان، ومن المعتقد أنها مغادرة نهائية، غادر الأمير بطريقة سهلة ومن الباب الخلفي ومعه جميع أولاده).

اشتغل العاطلون عن العمل بهذا الخبر من الطفيليين والمتخلفين ومعاصيد الشر ومثيري الفتن، وقد شحذوا الهمم وأطلقوا سيقانهم للريح، ولم يأت وقت الظهيرة حتى وصل الخبر إلى أقصى مدى. من أقصى السهول الغربية حتى آخر الآكام الشرقية، نُسي في هذه اللحظة كل شيء حتى الأمطار وآثارها، واشتغل الناس في صناعة الخبر وإخراجه بالطريقة التي تتواءم مع أهدافهم وأفكارهم.

صيَّاح لما علم بالخبر رد بهذه العبارة: (إيه بدل الكلب كلب غيره) أما خشمان فإنه أحس برغبة ملحة بالغناء والرقص وتفاءل كثيراً وقال: (أول الغيث قطرة) وقال أيضاً: (ولى الكلب الكبير وباكر أو اللي عقبه تلحقه الجراوة).

أحمد العبد ربه، وفهد القطوة، عقدا اجتماعاً عاجلاً بينهما وقررا أن هناك تطورات وتحولات طرأت يجب أخذها بعين الاعتبار، ويجب العدول مؤقتاً عن القرار الأخير والصارم الذي اتخذاه بمغادرة الحفرة من غير رجعة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، كان باعتقادهما أن الوضع لن يتغير، وأن الحفرة باقية على أوهامها، ولن يطرأ أي تغيير للعقلية الحفرية، وستبقى عائمة بأحلامها وأفكارها التي ورثوها من طاباش والبعيرصي، وسيتمكن الغلو الإرهابي بهم حتى تأتي مرحلة الاحتقان النهائي، الأمر الذي يؤدي إلى أن تكون غابة وحشية صحراوية جافة مقفرة من المرور الإنساني.

ولكن مغادرة الأمير جعلت الأبواب مفتوحة أمامهم لإعادة النظر بالكم الهائل من الإحباطات المتواصلة، التي أدت إلى خيبات حقيقية أجبرتهم على حزم الحقائب ومغادرة الوحل الأحمر.

عبدالله القنار أقسم بالله العلي العظيم أنه سيتزوج هذه الليلة بالفأس أو المهراس، حتى ولو كانت تركية الحبطاء تلك المجنونة الخضراء، وذلك أضعف الإيمان، وهو يجوب الحفرة من شمالها إلى جنوبها بالمشية العسكرية الصاخبة، وقد أشبع الأرض رفساً، حتى توقف فجأة على الطريق الذي غادر منه الأمير، ورفع عصاه يتهدد ويتوعد ويلعن الزمن الغادر الذي عجل بسفر (المأخوذ)، لأنه كان ينوي هذا الصباح بالذات مهاجمة القصر، وأن المعركة ستدور رحاها ولن يخرج من القصر حتى تكون خصيتا الأمير وخصيتا أبي شينان بين كفيه، ولكنه بصق على الطريق وأتبع البصقة حثوة من تراب.

أما ذلك الحكيم الساخر (علي الأزرق) فقد أخذه النعاس في إحدى الزوايا البعيدة من السوق على إثر فطور دسم تناوله في بيت أحد الموسرين، وقد ملأ بطنه بشدة ولم يستطع مقاومة النعاس المرضي، وعندما استيقظ وعلم بالخبر وكان آخر طفل كبير يعلم به، بدأ يقرأ (سورته المفضلة) واستمر يكررها، وأخيراً نهض من مكانه، وهو يطلق أصواتاً غازية تخلصاً من الأحمال الزائدة، ويطلب من أحد المارة أن يجيب عن تلك الأسئلة بمثلها.

كانت بلدة الحفرة تنتظر هذا اليوم تصوراً حقيقياً للخبر من تلك الحركات العبثية والعفوية الساذجة، ولكن الموضوع تفرع إلى تصورات وتراكمات منسوجة اتخذت أشكالاً عدة، حتى الجن والسحر وعيون الحاسدين أصبحت وراء هذه المغادرة المفاجئة، من كان على خط الأمير، وينظر إلى مصلحته الذاتية في بقاء الأمير يرجئ السبب إلى عيون الحاسدين التي استطاعت أن تصيب هدفها، وتجعل الأمير يغادر بهذه السرعة غير المتوقعة، وأما المحايدون فإنهم مقتنعون بمسار التاريخ، وأن الدنيا دواليك يوم لك ويوم عليك، وأن البقاء لله وحده، وأن الصفحة البيضاء أقرب إلى الله من السوداء الملطخة بالظلم، وأن النقاوة شرط أساسي لدخول الجنة، ولا بد أن تكون المواجهة يوم الدين خالصة من الهفوات الأليمة.

كل هذا يجري بدون قيد أو شرط وبلا هدف محدد.

ماذا تعني مغادرة الأمير أو بقاؤه عند هؤلاء المطحونين الفقراء في بقعة مستنفذة من حياة أرض ميتة بكل أشكالها، ما عدا تلك الحركة الملعونة التي لم تخمد بعد، وتريح الأشقياء وتجعلهم يعترفون بأنهم ميتون ولكنهم يفسون في النهاية في أمل حياة؟.

أصحاب العهن المنفوش والمصالح الكبرى "خضهم الخبر" خضاً، أمثال طاباش والبعيرصي والمرابين الجدد والقدامى، لقد وقعت الواقعة، وغادر السند المشارك، وأصبحت المصالح في خطر، وتعرضت للسلب والنهب، وأخيراً تكالبت جهودهم على الخلف القادم، وكيف ستكون شروطه؟، أربعينية كسابقه؟ أم يكون طماعاً جشعاً يحولها إلى شروط ثمانينية؟، المشكلة عند هؤلاء أصبح لها معنى وتقاس بالأرقام والمسافات الهزيلة، لأنها في النهاية أرقام فقراء تحسب بالقطع المعدنية التي غطاها الصدأ، وما زالت تعمل ويكتال بها القمح

والشعير طعام الصحراء الوحيد كما كان يقول "أبو عرب" يوماَ ما، عندما طرده والده من الدار بعد المشكلة، متعذراً بأعذار واهية لأنه يأكل الكثير ولا يرد مقابله عملاً أو أي شيء يستفاد به، ما عدا تل الأوراق والقراطيس الكثيفة التي لا تأتي بطعام، وقد ضاقت بها الدار ذرعاً، فقرر والده الشاوي ذات يوم أن يحرقها جميعاً؛ لأنها من الأسباب التي أدت إلى ضياع ابنه.

أدرك أبو عرب أخيراً أنه لا يستطيع تغيير وبر الجمل بشعر زرافة، وأن البداوة ضاربة أطنابها بالعمق، ولأنه ابن البداوة أراد توجيهها إلى الطريق التي لا تشتهي أن تسير عليه، ولأن سفينة الصحراء لا تطفو فوق الماء، وأن الأخفاف لا تتحول إلى زعانف.

ما تبقى من أموال النفط الجديدة والمزركشة كانت تدخل إلى الحفرة على استحياء، وعلى حين غرة تضرب ضربات مباغتة ومؤلمة، بدأت بفتح المدارس الحديثة التي أحدثت ضجة كبيرة، وأنبأت بقرب اليوم الموعود وشروق الشمس من مغربها، وأكدت أنها علامات الكفر، وأنتجت ثورة الطلبة.

ما كادت تنسى ويستقر الوضع، حتى فُتح مقر البرقية ونقل الرسائل لاسلكياً، عندها أذن مؤذن الاستنفار العام، وتحرك الطابور الرابع حين كان يعيش فيما سبق فترة كمون عام بعد انتهاء صلاحيته، كان هذا الطابور لا يحاور نفسه ولا يتحاور مع أحد، وقد طوق نفسه بروحانية خاصة، انعزالية عن الناس يقودهم رجل منهم اسمه (حامد القرطاس) نسبة إلى كمية الأوراق التي يحملها معه دائما، وبعض المخطوطات الصفراء التي تقطعت بها السبل في هذه الصحراء الواسعة.

حامد القرطاس فجر القنبلة الأولى على وجه السرعة عندما ألف كتابا أسماه: (الشهب المرمية بتحريم البرقية) يثبت فيه أن البرقية حرام، وأنها من عمل الشيطان وأن السعاة ما هم إلا عفاريت تحمل الرسائل بلمح البصر إلى أي مكان في الأرض، لأنه شاهد عدة مرات عندما كان يرقب المكان ليلا، كمية من العفاريت تتهافت على مقر البرقية، وهي تحمل رسائل هبوطا وإقلاعا.

كان هذا الحديث يدور هذا اليوم في لقاء جمع ثلة من أصحاب الأحلام السعيدة الذين ذاقوا ثمرة أحلامهم في سوق الحلال جلداً بالرطيب، مع أستاذهم الجديد "المستر كاكي" وقد خرجوا بقناعة تامة لا تقبل المساومة بأن الجميل بالحفرة أنها لا تكين ولا تستكين، ورقصات الموت تعمل دائما والأبواب الخطيرة تفتح على مصراعيها، ولكنها كعاصوف صيف ممتد إلى السماء طولا، ولكن لا يؤذي أحدا، تحب دائماً أن تعيش مشاغبة لا تهوى الاسترخاء لأنه يسبب لها أرقاً لا تطيقه، وتتغنى بفتح الملفات الجديدة، وتترنح طرباً عندما تنكشف الحال والأحوال، وتبين سوءةً عريانة.

في المساء الجائع من هذا اليوم الذي بدأ يسدل خيوطاً ذهبيةً باهتةً على سوق الحلال، اكتملت أوراق كثيرة بعد المعاناة الطويلة التي شهدها السوق منذ الصباح الباكر. بدا السوق وكأنه يعلن استسلامه من شدة الأحداث التي زاولها بعنف، من دك الجمال للأرض ورغائها المتواصل الذي جاوبه الصدى من جميع الجوانب، حتى صعد إلى عنان السماء، إلى الأخبار السعيدة والأليمة، مرورا بالصراع والركل والعض بين السماسرة وبعضهم، توجت أخيراً بالديون المضاعفة على من رغب باغتيال نفسه.

اتضح هذا الاستسلام عندما بدأت الأسعار تتهاوى شيئا فشيئا على جميع البضائع المعروضة، وخاصة بورصة الإبل عندما فقد البدو صبرهم وعنادهم الحاد بعدم التراجع عن الأسعار الصباحية، لأن الليل الرطب والبارد بدأ يقترب، وهذه الإبل كادت أن تموت جوعاً مما جعل بعضها يحاول التمرد ويكسر نظام العرض والاصطفاف المغري للزبائن، بدأت علامات التململ والاقتناع بأسعار جديدة، مما جعل المنتظرين هناك وفي زوايا السوق البعيدة: الذين ينتظرون هذه اللحظة أن يتحركوا وتبدأ لعبة الشطار.

تحرك الحنشول الأكبر والسارق الأعظم "دمعان"، كان ينتظر هناك ويرقب الوضع من بعد، تقدم كصقر جائع كان يعتلي شجرة وينتظر لحظة ضعف من فريسة ويبدأ الانقضاض في الوقت المناسب، تقدم إلى الرجال بخطوات غير مكترثة وكأن الأمر لا يعنيه بشيء، لم يتوجه مباشرةً، وإنما أخذت مشيته شكل نصف دائرة حتى وصل إليهم بدون رغبة.

سأل مباشرة وقال: (هاه ما بعتوا إلى هالحين وش تنتظرون؟ باكر الصباح الأسعار تنـزل، والأخبار اللي جتنا تقول إن الحلال بالطريق والرعية بذنب الرعية ومع الشمس كلها بالسوق).

سأل بدوي: (تشتري منا؟).

- ما عندي رغبة اليوم، والصباح نشتري بالسعر اللي نبي).

- (بس أسعارنا الأولة كبيناها والتنـزيل وارد).

- (حتى لو نزلتوا نصف القيمة.ما نضمن السوق باكر).

- (ومنهو اللي قال لك إن الطريق به حلال؟، الطريق ما بها لون يا لحبيب).

تتدخل عجوز بدوية وهي تنظر إلى دمعان من هاتين العينين المتقدتين، ومن خلال الفتحات الموجودة على الخمار، وكانت ترقب الوضع، عندما وجدت المجال يتسع للتدخل أرادت أن تجرب لعبة الشطار لعلها تجد مقتلا.

قالت: (اسمع يا هب الريح حلالنا غالي علينا ولا تصدق نفسك آننا نبي نبيعك بتراب، افتح السوم وقل سعرك إن أعجبنا بعناك الملويات وإن ما أعجبنا خذينا حلالنا وسرينا يم عربنا).

كان نزهان يقف في الوسط بين البدوية ودمعان مقعياً على رجليه، يلهث وكأنه يريد أن يقول شيئاً، كاد يحذر البدوية من هذا المخاتل الخطير، كان نزهان كلب الرعية الأمين أحضروه معهم للمساعدة، بدأ دمعان ينظر إليه بخوف وقلق كاد أن يمزق ثوبه عندما اقترب دمعان قليلاً وتجاوز الخط الأحمر، فما كان منه إلا أن تراجع للوراء، يبدو أن دمعان اكتشف أن نزهان يعرف كل شيء، يعرف اللعبة التي خطط لها من بداية المساء، وتقدم ليلعبها جيداً لذلك تحاشى المواجهة، واكتشف أيضاً أن الكلاب تعرف بعضها.

قال: (الجمل الأوضح والبكرة الملحاء على مية وستين).

- (مالك لوى يا هب الرمح).

- (زين كم تبون؟).

ردت العجوز: (على. مية وسبعين).

- (زين اشتريت عدوا أفلوسكم).

قرر دمعان الشراء، وقد أضمر في قلبه شيئاً عندما تأكد أن العجوز صاحبة الكلمة الأولى لذلك سأل: (وش اسمك بالخير يا عجوز الرحمن؟).

اسمي: (الجازية - أم دوشان).

- (طيب وين دوشان ما جا معكم؟).

- (إلا بلى هو ذالمطنون الواقف قدام البل).

- (أجل هالرجال اللي واقف معنا ويبايع ويشاري؟).

- (هذا يا لحبيب فزَّاع من الجماعة وله معرفة بالبيع والشراء، قبل ضحيتين جلب أباعره وباعهن بسعر زين).

- (زين... خذي أفلوسك وعديهن قطعة قطعة).

- (كم حقي يا هب الريح؟).

- (ثلاث مية وأربعين.. اضبطي حلالك).

كان يعد لها النقود قطعة بعد قطعة، والجميع يعدون معها، حتى نزهان يشاهد الأيدي وهي تتحرك أثناء العد. سأل دمعان سؤالاً لتحويل الانتباه قال: (وش سيرة الجمل يا أم دوشان؟).

- (الجمل يا هب الريح هرش عمره ثلاثين بيضاء، جده الأولي التيه كان سمعت به وجده التالي دخل المغزى مع السلطان وكسب فرس وثلاث حيل طيبة وسيف واحد. أما أبوه فهو نهب عشر مرات، لين جته طلقة مع مرد الكوع وانكسر عظمه ومات في محله).

كان دمعان يدلس في عد النقود عندما شاهد الجازية أم دوشان وهي مسترسلة في سرد السيرة الذاتية لجملها.

عندما انتهت من سرد السيرة، كان دمعان غير راضٍ عمّا نهبه أثناء العد، حاول مرة أخرى، ثم سألها عن سيرة البكرة الملحاء؛ لأنه كما قال يجب أن يعرف سير جميع النوق التي يشتريها، وأنها أصبحت عادة تلازمه دائماً ولا يريد أن يغش الناس. قالت الجازية أم دوشان: (البكرة هذي أمها أجنبية ما نعرف عنها شي نهبها أبو دوشان قبل أربعين بيضاء).

- (متى يا أم دوشان؟).

- (سنة الهرطميل، غادر أبو دوشان وقومه الفجر مع شلعة النجمة على قوم طرقيه وجهتهم شمال النفود).

شاهد دمعان الحماس بدأ ينتاب الجازية عندما تكلمت بمثالب زوجها البطولية ومقدرته الفذة في قطع الطريق على المسافرين ونهب أموالهم، أخيراً دلس في العد مرة أخرى، وقال: (وهذا ثمن بعارينك بالكمال والتمام).

بعدها استأذن دمعان وانسحب بسرعة متعللاً بأنه أصابه مغص ويريد الذهاب إلى الخلاء فوراً، وكالعادة كانت الجمال تُترك تبيت في وسط السوق، عندها ترك جماله وغادر الموقع خوفاً من اكتشاف أمره.

أما الجازية أم دوشان فإنها قررت أن تستضيف هذه الليلة "أبا شلهوب" لأنه من أفراد القبيلة وعزيز جداً وله سمعة طيبة، بالإضافة إلى التوصيات التي تلقتها من شيوخ العشيرة، كان أبو شلهوب قد نصب خيمته في العراء خارج السور، كان هذا مبكراً في الأيام الأولى للهدام لأن البيت الذي كان يسكنه بدأ يتهاوى ويتضح الخلل، فغادر قبل الكارثة المتوقعة التي حدثت فيما بعد، والتي أدت إلى انجراف البيت بالكامل.

عندما شاهد أبو شلهوب المكان فيما بعد فوجئ بالمشهد الغريب الذي حدث، كان أبو شلهوب يحاول أن يتأكد: هل كان هنا بيتٌ يوماً ما؟.

قبل أن تغادر أم دوشان السوق تراءى لها أبو شلهوب عن بعد، نادت عليه وبلغته بأنها وجماعتها ضيفته الليلة، رحب أبو شلهوب بها وبجماعتها وأكد عليها بضيافته وأنه لن يكلمها لو لم تأت لضيافته.

قال: (المحل محلكم والعشاء جاهز، يا هلا والله بأولاد العم، وتراي سابقكم للبيت).

بكل حماس أحضر أبو شلهوب الذبيحة وطلب من أهل البيت القيام بالواجب، وأكد أن الضيوف عزيزون ولا بد من إكرامهم، ولو أنه يشعر بالمرارة ولكن ماذا يفعل؟ لماذا لم يكن أبو شلهوب حاضراً بالوجدان عند البيع والشراء؟.

ولِمَ لم يستنجدوا به لبيع جمالهم؟ ولم يطلبوا منه بالبداية أن يشتري؟.. كل هذه الأسئلة كانت تدور برأسه ولكن ماذا يعمل؟ هذه كانت العادة اللعينة التي يجب التخلص منها، ابن العم لا يعرف إلا عند الضيافة. قال بصوت خافت: (الله يلعنها من عادة) قال أيضا: (حتى الفقير لا يعذر من هالعادة). كان أبو شلهوب يهمهم بهذه الأشياء بحذر شديد حتى أولاده لا يريدهم أن يعرفوها؛ فلو اطلعوا عليها لأصبحت فضيحة يستنكرونها بشدة، فالعشيرة أهم من كل الأشياء التي على الأرض.

عند غروب الشمس وبداية الشفق الأحمر وهو يضفي لونه المخملي الباكي على المسافات الواسعة، حضرت الجازية وابنها دوشان.يصاحبهما ابن العم وكلبهم نزهان، كان دوشان متضايقاً جدا وتظهر عليه العصبية. وتعكر المزاج، ويريد أن يغادر إلى الأوطان الخالية بأسرع وقت.

قال وهو في الطريق: (يا أمي لا تضيمينن أنا ما أدانى الحاضرة عيشتي وراحتي في الفلاة). أما والدته فكانت تعذره على هذه الحالة السوداوية التي تصيبه عندما يقترب من البنيان والدور الطينية، لأنها تسبب له نوعا من الشلل العقلي والتشنجات النفسية، وهذه الأشياء التي تصيبه وتظهر على تصرفاته عندما يقترب من هذه الدور كانت لها أسبابها ومبرراتها، وترجع إلى زمان قد فات وأيام بعيدة ذهبت وذهبت معها حلاوتها ومرارتها.

وقالت الجازية: (هالسوداء اللي فيه صابته وهو غليم يوم إنه رافق أبوه سنة من السنين وجلبوا الأباعر على الحفرة، ويومها استضافوا الرجال اللي اشترى منهم، وأثاري في بيته شيطان داخل الغليم، وعقبها صار دوشان بين البشتين) كانت تقول هذا وهي في الطريق، وكان جوابا لهذا السؤال الذي آثاره ابن العم وهو يتساءل عن هذه التصرفات التي يقوم بها دوشان، وخاصة عندما أقبلوا على الحفرة.

كانت الجازية تصارح ابن العم وهي مشغولة في تأمين تلك القطع المعدنية التي حصلت عليها ثمناً لنوقها، وضعتها في كيس قديم جلبته معها استعدادا لتلك المبالغ الملعونة التي أخذت تفكيرها طوال الرحلة، وربطت الكيس مرة ثم أَعادت ربطه مرة ثانية وثالثة وعاشرة وعشرين حتى اطمأنت، وأصبحت على يقين تام بأن تلك القطع الحديدية لن تفلت منها، ولو حاول أحد أن يأخذها فسوف تسقط رؤوس كثيرة لأن مرافقيها شجعان وأحفاد شجعان، كانت تقنع نفسها وخاصة دوشان لأنه ابن ذلك الحنشول الذي تعرفه ليالي الصحراء السود، وتعرف غاراته الوحشية، وفي النهاية لا بد أن يكون هذا الشبل من ذاك الأسد، تعاود الهمهمة مرة أخرى: (ليش أخاف وأنا بين الفهود) وما كانت تدرك أن أول السارقين لها دمعان؛ كان يسرقها بمساعدة فهديها وهما لا يفقهان من الأمر شيئا.

- صب القهوة للضيوف.. بدأ الكلام والحوار بينهم بعد الفنجان الثالث، قال أبو شلهوب: (هاه بعتوا حلالكم؟).

الجازية: بعنا على واحد من أهل السوق بعد ما طلع عيوننا الثنتين.

أبو شلهوب: كم بعتوهن؟

الجازية: على مية وسبعين.

أبو شلهوب: استلمتوا؟

الجازية: نعم قطعة قطعة.

أبو شلهوب: ما تعرفين الرجال اللي بعتوهن عليه؟

ابن العم: والله ما نعرفه ولكنه رجال كريه وصعب أَصفر الوجه أعيونه تدمع دايم.

أبو شلهوب: عسى ما هو دمعان، حرامي السوق؟

ابن العم: ما ندري والله ولكن بعنا واستلمنا.

أبو شلهوب: عديتوا دراهمكم زين؟

الجازية: والله عديناهن سوى ولا ندري.

أبو شلهوب: بعد العشاء نعدهن ونشوف، أنا يا أم دوشان ماني متأكد من هالملعون.

بعد هذا الحوار طلب من الجميع أن يتقدموا إلى طعامهم.

قال: (يا هلا ومرحبا، تفقدوا ضِيفتكم، تامة والتام وجه الله).

كانت شاة سمينة وقدمت كاملة ولم ينقص منها شيء، ولو نقص منها لنقصت مكانة أبي شلهوب عند أفراد القبيلة وانحدرت سمعته إلى الدرجة الثالثة، ولقيل عنه إنه من المستويات المنحدرة. عندها سوف تقل مكانة العائلة بأسرها، ولن يتقدم إليه أحد من علية القوم طالباً يد بنت من بناته. لهذا السبب كان أبو شلهوب حريصاً كل الحرص أن يخرج بهذه المناسبة والوجه أبيض لا تشوبه شائبة. قال مرة لأولاده الصغار وهو يدربهم على التعامل مع أفراد القبيلة: (ستر الوجه واجب، وترى يا عيالي اللي تاكل العين ما هو البطن).

كل هذه الأشياء التي يقولها عبارة عن تبريرات مصطنعة لنفسه أولاً قبل أن تكون موجهة إلى أحد؛ لأنه اشترى الشاة بكل ما يملك من نقود، ولأنه الآن بقي خاوي اليدين. فمنذ مدة طويلة وهو لا يعمل، ومنذ أن بدأ الهدام تناقص ما كان يملك حتى لم يبق معه إلا القليل جداً، وقد اشترى به شاة وعزم عليها ضيوفه، حتى نزهان يعتبر من الضيوف ما دام يحمل وسم القبيلة، ووسم القبيلة هو العلم الذي يجب الالتفاف حوله، كان حلقتين وبينهما نقطة، هذا الوسم معروف بكل مكان في هذه الصحراء الخاوية، وما دام الوسم موجوداً على النساء والرجال أو حتى على الإبل والكلاب أيضاً، فواجب على الجميع استضافته أو ضيافته، ونزهان لا يقل أهمية عن دوشان ما دامت هاتان الحلقتان والنقطة على جبينه.

ظهرت هذه التأملات وتعزية النفس عمّا فقده بكلماته الأخيرة أمام أولاده عندما قال: (كلنا لله وسنستظل بظله يوم لا ظل إلا ظله).

بدأ الجميع يفترسون افتراساً، ودوشان قائد المعركة، كيف لا وهو منذ غادر القبيلة وهو لم يأكل شيئاً يذكر؟! لم يمر مع حلقه إلا طعام المسافر (تمرتين وقرطوع ماء) هذا كل ما تناوله دوشان، كان يقول هذا عندما انتهى من الأكل مادحاً ما قدمه لهم أبو شلهوب.. قال أيضا: (أنتم يالحضران تطبخون زين واجد) ولكن الجازية لكمته لكمة بين أضلاعه بكعب يدها دونما يشعر بها أحد خوفاً من الفضيحة، المهم في الأمر أن الشاة دخلت البطون بوقت قياسي أسرع مما توقع أبو شلهوب. وقد فوجئ عندما أصبحت الصحون خالية من البقايا، كاد أن يقول: (أعوذ بالله.. أعويذا.. أعويذا.. وش ذالوادم).

نزهان غادر الموقع إلى التلال والمرتفعات القريبة ليلقي نظرة على الموقع، بعد أن أكل عظام الشاة وما تبقى من مخلفات المعركة، كاد دوشان أن يتبعه ويلقي هو أيضاً نظرةً مقارنة بين هذه الأراضي وبين أراضيه التي يعرفها، لولا أن الجازية فطنت لهذا وألقت عليه نظرة تحذيرية، عندها مال إلى السكينة والتثاؤب والرغبة في النوم.

سأل أبو شلهوب فيما إذا كانت هناك رغبة في عد النقود مرة أخرى.

ردت الجازية: (أنت يا أبو شلهوب عداد جيد ولا لنا إلا الله ثم أنت يا هب الريح).

وقالت أيضا: (دونك الحلال وسو اللي تبيه).

أخذ أبو شلهوب القطع المعدنية الصدئة وبدأ يعدها عشرةً عشرة ووضعها كرجوم، كل عشرة جعلها رجماً لوحده، مما جعل دوشان يعجب بهذه الفكرة وينبطح على بطنه وهو يتأملها رِجماً رِجماً، حيث أصبح مضحكة للجميع، مما جعل أبا شلهوب في وقت من الأوقات يذكر لزوجته أن دوشان لم يداخله شيطان كما ذكرت أمه، ولكن جميع العائلة عقولها صغيرة.

حدث ما كان متوقعاً، النقود نقصت عشرين قطعة، ذهبت أم دوشان إلى الكيس تبحث به لعلها تجد البقية، نفضت الكيس عدة مرات، أدخلت رأسها بوسطه تحسست جسدها لعلها تجد شيئا ملتصقا به، لم تترك شيئاً إلا وتحسسته، حتى المناطق المحرمة في جسدها تحسستها ولم تعثر على خبر.

أصيب الجميع بسكون عام أعقبه ثورة عارمة، أقسم دوشان أن يقتل دمعان بهذا الخنجر الذي كان مربوطاً بوسطه، ولم يعرف كيف يقضي تلك الليلة، ولا يستطيع أن ينتظر إلى الصباح.

الجازية أم دوشان كانت تفكر بشيء أكبر مما قاله دوشان، كانت تفكر أن تستنجد بالقبيلة بكاملها، تأتي بجيش من البدو له أول وليس له آخر وتهاجم الحفرة عن بكرة أبيها، وتبدأ بحرب ضروس تأكل الأخضر واليابس، وتؤدب جميع الحضران عن بكرة أبيهم.

أما ابن العم فكان أكثرهم تعقلا، ورغب بالخنق فقط دون إسالة دماء. نزهان كان أكثرهم عملية وجدية لأنه بدأ على الفور بمناورة حية مع الكلاب المجاورة ليتمكن في الصباح من تطبيقها على أَرض الواقع.

أبو شلهوب كان يدرك هذه الانفعالات جيداً، ويعرف تمام المعرفة أنه لو دامت الأمور بهذه الطريقة، فإن دمعان سوف يمزق أشلاءً وستكون هناك كارثة، وما دام العقل غائباً عند هؤلاء الناس، وما دام أن هناك متسعاً من الوقت فلا بد أن يعمل على تصحيح الأمور وإعادة العقول إلى جماجمها.

طلب منهم الهدوء والجلوس إلى الأرض والتفكير الجاد، وأن التهديدات بالحرب لا تأتي بنتيجة لأن الخسائر المحتملة ستكون كارثة أكبر، ولكن دوشان لم يستجب للأمر، وطلب من أبي شلهوب أن يدله في هذه اللحظة على مكان دمعان، وفي ظلمة الليل تسترد الحقوق، إما أن يستجيب لمطلبه أو يقوم هو بالبحث عنه، وإلا ما فائدة الخناجر التي توضع في وسط البطون، هل هي للزينة فقط؟ أم يصنعها الرجال لاسترداد حقوقهم؟.

ما صدر من دوشان في هذه اللحظة يدعو إلى إعجاب الجميع وخاصة أم دوشان التي قالت: (ول.. ول.. يا دوشان.. أثريك طالع على أبوك ما تغير على القوم إلا تال الليل).

بعد إلحاح وجهد بذله أبو شلهوب استجاب الجميع للأمر الواقع وذهبوا للنوم في أمل صباح حار، من شدة التعب والإرهاق ما كادوا يضعون رؤوسهم حتى غشاهم النوم بسرعة.

جميع الرجال ناموا في العراء لأن الخيمة لا تتسع للجميع، وقد افترشوا الرملة الذهبية الرطبة التي تشجع الجميع على الملل والتنغيص، وكان كما يقال: (أن النوم سلطان جائر) دوشان دخل في غيبوبة تامة ونوم عميق يحسد عليه، وأصوات الشخير تسمع من مسافات بعيدة، تدحرج دوشان وابتعد عن مكانه مسافات طويلة، وسقط من وسطه الخنجر دونما يشعر، وأصبح منبطحاً على بطنه في سبات عميق. عثر نزهان على الخنجر وهو يناور الكلاب المجاورة فالتقطه بفمه، وحاول استعماله لعله يكتشف سلاحاً جديداً يساعده على الحرب بعد أن شعر بالهزيمة أمام الأعداء.

في ضحى هذا اليوم الذي كادت أن تتوقف شمسه فوق الرأس وقبل أذان الظهر بقليل، كانت طويلة تنتظر القادم من ناحية الحفرة، ولماذا كل هذا التأخير؟ وضعت القهوة ووضعت التمر في إناء، وقبل لحظات انتهت من خض اللبن وأخرجت الزبدة من قاع الصميل وقسمتها قسمتين، قسمة وضعتها مع التمر والقسمة الأخرى جعلتها إداماً للعشاء، صوبت نظرها إلى الطريق الممتد عبر المسافات الواسعة لعلها تشاهد خبراً، وضعت كفها فوق حاجبيها لعلها ترى بُعدا أطول، وفي النهاية عادت إلى الخيمة وبدأت بتنظيفها مرة أخرى لأن الصغار يأتون وأرجلهم محملة بكميات من الرمل، هددت جميع الأولاد وأنذرتهم بعدم دخول الخيمة وأرجلهم هكذا، وأمرتهم بالانتظار فوق تلك الرابية القريبة لعلهم يشاهدون والدهم وهو قادم. أقبلت بنظرها مرة أخرى على الطريق، شاهدت أو كادت تشاهد أزولة عديدة ولكنها لا تستطيع تمييز تلك الأزوال البعيدة، وهل هي أوادم أم جمال، إنها ستة أو سبعة أزوال طرش ومعها راعيها، ست نوق بالتمام والكمال والراعي يركب إحداها، من هذا البعد سمعت صوت الراعي وعرفت أنه صياح ولكن لم تقطع بعد.

الصبيان أعلنوا الخبر الأكيد وأن القادم هو والدهم.

وصل صياح إلى الخيمة ومعه تلك النوق التي اشتراها، والجميع وقفوا صفاً واحداً ليشاهدوا والدهم وهو راكب فوق الناقة، لأول مرة يشاهدون والدهم هكذا، وقد أصابهم الزهو والافتخار والإعجاب الشديد بهذا الوالد الذي يمتطي الجمال. كان صياح يشاهد هذا في عيون الصغار، ووجدها مناسبة سعيدة ليظهر مهاراته العجيبة في مزاولة الكر والفر وهو معتل ظهر الناقة، دار عدة دورات أمامهم ثم نزل عن ظهر الناقة وهي واقفة، والصبيان يضحكون ببكاء إعجاباً وخوفاً مما يحصل أمامهم، وأخيراً نزل عن ظهر الناقة

وبدأ بلملمة النوق وبركها أمام الخيمة، أدار عقلها وتأكد من ذلك واطمأن بأن الحبال ربطت جيداً بمعاقلها.

وقف خلف إحداها ولكزها برجله وهو يحاول اختبار الأربطة، عندما تأكد من ذلك اتجه إلى الخيمة ونزع العباءة، وطلب من زوجته طويلة أن تأتي بالقهوة. جلس قُبالتها، وصبت له طويلة فنجاناً، شرب منه قليلاً ووضعه على الأرض وأخرج كيس الشاور من جيبه، بعدها لف سيجارته وأشعلها، وأحست طويلة بأن صياحاً له رغبة في الكلام، فباشرته بسؤال عن تلك النوق وكيف اشترها؟.

أجابها: (اشتريتها من رعية واحدة وكلها ولايف بنات جمل واحد، والملحاء هذيك القعدة).

طويلة: (بكم شريتها؟).

صياح: (على مية وخمس وستين).

طويلة: (رخيصات الله العالم).

صياح: (على رغبة السوق).

طويلة: (تظن يسوون زود؟).

صياح: (قلت على رغبة السوق، والله العالم أن القعدة هذيك وأختها الزرقاء اللي على يمينها زينات، والشقحاء وخواتها المجاهيم ما ينعرف وش يصير).

ظهر الاضطراب والتململ على الناقة الملحاء وبدأت بمحاولة أولية للقيام ولكنها عاودت الهدوء. بدأت تدير رأسها شمالاً وجنوباً، ورفعت رأسها إلى أعلى، فتحت منخريها وبدأت تشم رائحة الهواء، وأخيراً حنت بصوت وجاوبتها بقية النوق بالحنين.

حاول صياح تطمينها، صاح عليها عدة مرات: (هو.. هي.. هو هي) هدأت قليلاً ولكنها واصلت حنينها مرة ثانية.

عرف صياح أن النوق مضطربة لأن المكان تغير عليها، وأن هذا الصاحب لا تعرفه ولم تعتد عليه، اتجه صياح إليها بعدما شرب القهوة ثم تناول الزبد والتمر واللبن أيضا. ربت على ظهورها وبدأ يكلمها ويغني لها، فجأةً اطمأنت الإبل وعاودها الهدوء، وبدأت تجتر دليلاً على قبول الصداقة الجديدة.

حن معها صياح وقال لها أيضا: لقد حنينا قبلكم منذ زمن بعيد، في ذلك الزمن الأصفر ونحن في البعيد كانت ديارنا تبعد عنا أشهراً، وعانينا مثلما تعانون الآن. إن الحنين أيها

النوق واجب وطني، كلما شعر الإنسان بالغربة لا بد له من الحنين، لم يكتف صياح بهذا، وإنما غنى بحنين وهو يقول:

خلوج تجذب القلب بأعلى اعوالها ..... تـرزم بعبرات تحطم إسبالها

تهيض مفجوع الضمايـر بحسهـا ..... إلى طوحت صوتٍ تزايد هجالها

عرفت الإبل أنها مع صاحب جديد وأَنه يستحق المصاحبة، وسكتت عن الحنين. لقد تعلمت بسرعة، أسرع من أولئك الذين لا يفهمون واقعهم، ولم يتعلموا دروس الصحراء التي تلقى عليهم باستمرار.

أَحمد العبد ربه عرف أخيراً أهمية الحنين، وكان يؤكد لزملائه أن القانون الصحراوي لا يحمي أولئك المغفلين الذين لا يعرفون الحنين. وقال أيضا: (لا بد أن تتعلموا الحنين من الآن فصاعداً لأنها الفرصة الوحيدة التي نستطيع أن نعبر بها عن هزائمنا السابقة واللاحقة بدون ممارسات عدوانية من أحد).

قبيل العصر بقليل انطلق صياح بالنوق إلى المرعى المجاور وقد ركب الملحاء قائدة النوق لأنها قعدة، والقعدة هي التي تملك المقدرة على قيادة الإبل. بدأ صياح يغني لها والنوق تسير وهي منسجمة مع الغناء، ذلك الغناء المقهور الذي يدل على حياة الصحراء الحزينة. إنه غناء ينسجم مع روح الأحياء والأموات والمنتظرين على تلك الرجوم، وهم يأملون بقدوم حياة سعيدة تبشرهم بالإشباع الموعود، وعلى طريقة المثل القائل: (لا تموت يا حمار حتى يجيك الربيع).

استمر صياح بالمرعى حتى الغروب، وتأكد له أن النوق شبعت مما توافر لها من قشيعات صغيرة نبتت على وجه الأرض بعد هطول الأمطار. صاح للإبل استعداداً للعودة، وعندما تجمعت حول القعدة بدأَ مسيرة العودة، ولكن النوق بدأت تحن مجدداً لأن المساء ذكرها بأراضيها الماضية. وهذا الصوت الجديد ذكرها أيضاً بأصوات أصحابها عندما يزعقون لها لتعود إلى مباركها، كل هذا يحدث والنوق تسير خلف القعدة. في منتصف الطريق توقفت الإبل فجأة واتجهت بأنظارها إلى الجنوب، ولكن صياحاً ناداها وسارت خلفه، بعد وقت

قصير وقبل الوصول بنصف ساعة تقريباً، توقفت الإبل ثانية واتجهت بأنظارها إلى الجنوب مرة أخرى.

خمَّن صياح أن هناك ما يثير الإبل من تلك الناحية، لكز القعدة برجله وتوجه نحو الجنوب لعله يرى ما تراه الإبل. ألقى نظرة هناك ولكنه لم يشاهد شيئاً. رجع وواصل المسيرة على عجل لعله يصل بأقرب وقت ممكن قبل أن يحصل شيء لا يستطيع السيطرة عليه، قال لنفسه: (الله العالم إنه ذيب).

قرب الخيمة حصل للإبل الشيء نفسه، ولكن هذه المرة تجمعت الإبل حول نفسها وطأطأت برؤوسها، وقبل أن يشهر صياح سلاحه، شعر بهواء رطب من الجهة الجنوبية. الآن قد اتضح لصياح أن النوق شمت رائحة الهواء الرطب قبل أن يصل بوقت طويل:

ماذا يعني هبوب الرياح الرطبة من ناحية الجنوب؟

إنه يعني لصياح وللناس جميعاً عودة الكارثة مرة أخرى، وعودة السحب المحملة بالماء ليبدأ التدمير من جديد، تحطمت الآمال مرة ثانية، وخاصة لبعض الذين قرروا العودة إلى دورهم في الصباح.

رفع صياح رأسه إلى السماء وشاهد قطعاً صغيرة من السحب وهي تعكس ضوء القمر، قال لنفسه: (الله العالم أن السيل بالطريق يما الليلة أو يصبحنا على الخير). عند باب الخيمة وقفت طويلة وقد أحست بهبوب الرياح الرطبة وتنبأت بهطول المطر، قالت لصياح: (هب الجنوب والهوا رطب).

رد صياح: (أشوف السحاب تجمع والسيل جاي).

قالت: (يالله حوالينا ولا علينا).

نام الجميع بعد العشاء، وكل الناس خائفون، يحلمون بصباح آخر ينذرهم بهدام أخرى.

***

الفصل الخامس

في صباح اليوم الخامس والعشرين اكتملت السماء سوادا من كثرة السحب المتراكمة فوق بعضها، واختفت الشمس تماماً، وبدأت السماء هجومها برشات خفيفة، تتوقف أحياناً ثم تعاود الكرة من جديد، ولكنها رشات لا تؤذي أحدا.

قرر صياح أن يجلب النوق إلى السوق قبل أن يبدأ الهجوم الحقيقي، وتتكالب السيول على الأرض وتحصد ما تبقى من حياة عليها، عندها يصعب تأمين الغذاء اللازم لتلك النوق الجائعات.

عندما وصل إلى سوق الحلال وجده مشتعلاً بناره ورائحة السوق المختلطة بالرطوبة تشيع مناخاً ثقيلاً.

سمع صياح أصوات الرجال وهي تستغيث، والجميع يركضون، وشاهد أيضا الملابس الممزقة والغتر المقذوفة على الأرض، والطواقي تحت أقدام الجمال، وبعضهم ينتخي بعشيرته. تأكد لصياح أن الدماء وصلت إلى الركب، وأن هناك صراعاً حاداً بدأ يعمل وسط السوق. حاول صياح تحديد هوية المتصارعين ولكن هناك بُعد يفصل بينه وبينهم، أثناء تلك المحاولات شاهد أبا شلهوب وهو يركض مسرعاً، صاح عليه وطلب منه التوقف ليستطلع الأمر، ويقرر أخيراً ما الذي يتوجب عليه: دخول المعركة أم لا؟ ولكن أبا شلهوب لم يلتفت إليه بسبب الحماس الشديد وهول الورطة التي تورط بها دون رغبته.

عاد أبو شلهوب مرة أخرى وهو يحمل صخرة على كتفه، وقد غاص في عباب المعركة وتوارى نهائيا.

تقدم صياح إلى الخطوط الأمامية للصراع لعله يستطيع ولو إنقاذ أبي شلهوب وإخراجه بالقوة؛ لأنه من أعز أصدقائه ولا يريد أن يصاب بمكروه. هذا إن استطاع وإن لم يستطع فلا مانع من المساعدة إذا تطلب الموقف مساعدات سريعة، كلكمة على الوجه أو عضّة بين أكتاف أو لي ساعد، وإن تطورت الأمور واحتاج الموقف إلى استعمال وسائل أخرى، فما المانع ما دام أبو شلهوب بين المتصارعين؟.

قبل أن يصل بقليل وإذا برجال يسحبون عجوزاً دخلت بنصف غيبوبة وهي تهذي بكلمات قصيرة: (نزهان.. دوشان.. نزهان.. نزهان). كان شعرها الكث الأحمر يغطي وجهها، وتبين لصياح أن تلك البدوية العجوز دخلت معركة شرسة، وخاصة أنها دخلت هذه المعركة مع رجال، ولكنه لا يعرف بالتحديد الطرف المواجه.

بعد لحظات شاهد رجالاً آخرين وهم منكفئون على رجل آخر مبطوحاَ على الأرض وهو يقاوم، والرجال يحاولون أسره وهو يرغي كجمل، حاول صياح أن يتعرف عليه، وعندما صعب الأمر سأل أحد الرجال الواقفين فقال له الرجل: (هذا طول الله عمرك دوشان والعجوز والدته الجازية والاثنان من جماعة أبي شلهوب، والظاهر طال عمرك أن الاثنين فيهم سويدانية قبل ما يبدؤون بالضرب وهم طايحين).

وقال الرجل أيضا: (ما غير ورطوا ابن عمهم وأبو شلهوب).

في هذه اللحظة شعر أن أبا شلهوب في حاجة ماسة إلى المساعدة، وبدأ على الفور يقتحم الزحام وهو يفتش عن صديقه.

تراءى له أبو شلهوب وهو مشتبك مع أحد الرجال، اتجه إليه بكل قوة وجذبه من أكتافه وهزه عدة مرات، وحاول أن يعيده إلى رشده وأبو شلهوب يحاول الإفلات والعودة إلى الهجوم، قال له صياح (وين عقلك الأولي يابو شلهوب وراك صرت مثل الصغار).

رد أبو شلهوب بصعوبة وهو يحاول أن يسترد أنفاسه: (العقل يابو بلهان يغيب بعض المرات).

استطاع الرجال الموجودون فك النـزاع والسيطرة على الموقف تماماً، عندما أحس أبو شلهوب أن النـزاع خفت حدته وأن الوضع أصبح هادئا، بدأ يتفقد الخسائر، التي أصابت جسده وثيابه، هناك جرح صغير فوق العين اليمنى، وآثار عضة خفيفة على الكتف، والسن الأمامي شعر بأنه يهتز، أما المفقودات فهي: الغترة والطاقية، واستطاع صياح جمعها بسهولة، ما عدا الطاقية التي نشبت بخف جمل، حيث احتاج الوضع إلى دبلوماسية خاصة لإخراجها.

قبل أن ينتهي أبو شلهوب من لملمة أوضاعه، وإذا بالأصدقاء قد توافدوا جميعهم للاطمئنان عليه، ومعرفة الملابسات التي أدت إلى هذا الوضع المشين، وخاصة أنهم يعرفون أن صديقهم رجل عاقل ويقدر الأمور، ولا يمكن أن يدخل في مثل هذه المهاترات التي تؤدي بالنهاية إلى السمعة السيئة والخسائر التي لا فائدة منها، وعندما اشتد العتاب عليه حاول أن يبرر هذه الفعلة عندما جلس على الأرض، وطلب من الجميع الجلوس ليوضح لهم الأمر، وأنه ضحية لتداخلات عدة أدت إلى تورطه في القضية. ظهرت هذه الرغبة عندما قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله، اذكروا الله يا رجال، وصلوا على النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ما صار يا رجال مقدر إنه يصير ولا باليد حيلة، ولا هي رغبة بالنفس).

رد صياح وهو يهز رأسه معاتبا: (وشلون حصل الأمر يابو شلهوب).

-: (الجماعة.. جماعتنا ناموا عندي البارحة بعد العشاء، عديت أفلوسهم ثمن الناقة والجمل ويلاها ناقصة عشرين، وعرفت منهم أنهم باعوها على دمعان وأنتم تعرفون باقيها، جينا للسوق وحاولنا نتفاهم مع دمعان ورجيناه إنه يتأكد لعله ناسي أو ما عد الفلوس زين، لكن دمعان قال: اخرطي.. كذابين.. وأصلكم بدو سراقة وأنا معطيكم حقكم كامل على شهادة فلان وفلان).

- سأل صياح: (زين.. تسلم.. وبعدين).

-: (جماعتنا عقولهم خفيفة ودوشان مهبول صفع دمعان على وجهه و"ثار إقبيس" بينهم وأنتم تعرفون المثل اللي يقول "أنا وابن عمي على الغريب" هذي سلومنا يالبدو لين وقع الفاس بالراس، والله يفكنا من آخرتها). كان أبو شلهوب مستمراً بالرواية وبالزاوية الأخرى من السوق ثلاثة رجال مغمىً عليهم، وقد تراكض الرجال إلى القِرب المملوءة بالماء والتي يشرب منها الناس، وحملوها على أكتافهم بسرعة وصبوها على وجوه المغمى عليهم، حيث أفاقوا بصعوبة.

- هؤلاء الثلاثة هم: دمعان وعبدالكريم الشلوة ودحيم السعد، كانت الدماء تسيل منهم وهم مطروحون أرضا، إنهم لا يحسدون على هذا الموقف والناس تتفرج عليهم وخاصة الأستاذ الموقر دحيم السعد، والمشكوك بحياته بعد هذه المعركة. أما عبدالكريم الشلوة فهو يتنفس بصعوبة، ودمعان شرارة الفتنة فإنه يشخر من شدة الألم، ولو أن الأمر لا يحتاج إلى هذا الشخير الشديد، ولكن بالأمر شيء يعد له عدته.

- كانت المواجهة عادلة وكأنها أعدت سلفاً عندما واجه دحيم السعد أم دوشان، وقد استغلت هذا الأنف المعوج، والذي يقف بمقدمة وجه دحيم السعد، وعضته بشدة ولم تفك أسنانها من أنفه إلا عندما فقد وعيه.

أما دمعان فإنه واجه دوشان عندما التقت المجانين وجهاً لوجه واحتدم صراع شديد بينهما، حاول دوشان إنهاء الصراع بينهما عندما فكر بسحب الخنجر من وسطه، لكنه لم يعثر عليه لأن الخنجر كان بحوزة نزهان ليلة البارحة، عندها سقط دوشان مغمى عليه على إثر السويدانية التي وجدتها فرصة للدخول إلى أعماقه.

أما عبدالكريم الشلوة "مخلب الشنان" فإنه واجه ابن العم في صراع كاد أن يكون متعادلا، لولا أن موازين القوى مع عبدالكريم الشلوة، مما جعل ابن العم يستنجد بنـزهان الذي كان على أهبة الاستعداد لأي صيحة تأتي. هجم نزهان وطرح عبدالكريم الشلوة أرضا وعض يده، ثم انطلق مسرعاً نحو الإبل التي اشتراها دمعان وساقها بقوة وضمها إلى نوق أخرى، بعملية سطو مسلح وحنشلةٍ واضحةٍ بوضح النهار أيضا.

عندما أتم العملية بنجاح تام ومقدرة فذة، أَقعى على مسافة قريبة وبدا مستعداً للتحدي.

في هذه الأثناء والناس منشغلون هنا وهناك، وهم متحمسون ومنهمكون في جمع أكبر كمية من المعلومات التي تساعدهم في تسويق الحكاية في الأزقة والمنتديات، وإضافة بعض الفصول المرغوبة التي لا بد منها لجعل الحكاية تبدو أشد حقداً وإرهاباً. في هذه الأثناء حضر طاباش ومجموعته على وجه السرعة يحملون العصي الحاقدة والمتعطشة لتهشيم الجماجم والمؤخرات، كانت الأخبار وصلتهم مع مهب الريح وبسرعة فائقة، التقطتها تلك الأطباق المنتشرة والموجودة بكثرة، والمغروسة في نواحي الطرقات وعلى امتداد الجواديل المتعرجة، وعند كل مفترق طريق أطباق عاطلة عن العمل همها الوحيد وشغلها الشاغل نقل الأخبار السيئة، أما الأخبار السعيدة فإنهم يحتفظون بها لأنفسهم بالرد، منذ خلق الله الحفرة ومن عليها.

بدأ طاباش يضبط القصة، ولكن على طريقة الكيل بمكيالين والأقربون أولى بالمعروف؛ لأن دمعان من العائلة وهو أخ شقيق لزوجته "هيلة" وتحظى بمكانة عالية، وهي المفضلة لديه من بين زوجاته الثلاث، ولأنها السيدة الأولى، لا بد أن يعمل بالطريقة التي ترضي هيلة ويردع كل أولئك الذين يتعرضون لدمعان.

أما عبدالكريم الشلوة ودحيم السعد فإنهما عضوان كبيران في السوق المشتركة، والمصالح مترابطة ومتشابكة إلى الحد الذي يجعل طاباش يعمل كل ما في وسعه لإرضاء هذين، والأهم من هذا وذاك مزاولة الإرهاب لا بد منها، ولا يستطيع طاباش مزاولة ذلك إلا على الطرف الأضعف، مما جعل الحكم في القضية معروفا مقدما عند جميع الناس، وظهر هذا بوضوح عندما تفوّه صياح بكلمات تدل على هذا الأمر، قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يعينك يابو شلهوب).

أمر طاباش الرجال أن يقيدوا الجازية ومجموعتها ومن بينهم أبو شلهوب، ويتوجهون بهم إلى الحبس والنظر في قضيتهم فيما بعد. توجه بعدها إلى دمعان ورجاله وبدأ يظهر الود والاطمئنان والحرص الشديد والاهتمام الزائد.

قال: (الحمد لله على سلامتكم يا رجال، تعداكم الشر). عندما شاهد دمعان ذلك بدأ يتوجع ويئن بشدة ممسكاً برأسه الذي أصيب بجرح ليس بالعميق، جراء ضربة من صخرة طائشة وقع بعدها على الأرض والدم يسيل من رأسه.

تفازع الرجال وأهل الحمية وحملوا الثلاثة إلى بيوتهم. في الطريق، ودمعان محمولاً على الأكتاف إلى بيته، توقف الجميع أثناء سماعهم صوتاً من الخلف يدعوهم إلى التوقف، كان هذا الصوت صوت دحمان الابن الأكبر لهيلة والخامس لطاباش والأكثر دلالاً وأهميةً. كان يلبس الطاقية المطرزة بالخيوط الذهبية التي تميز من يلبسها عن بقية الناس، قال: (تقول الوالدة يجيبونه لبيتنا). وافق دمعان بسرعة فائقة، لأنه يعرف جيداً أن بيت طاباش أفضل

كثيرا من بيته، والأرزاق متوافرة بكثرة وخاصة اللحم الذي لم يشم رائحته منذ عيد الأضحى الذي مضى عليه أكثر من ثمانية شهور.

كان دمعان أبخل أهل الحفرة جميعا كما هو متعارف عليه عندهم، وكانوا يقولون: إن دمعان لا يشتري طعاماً أبدا، ولا هم له إلا تكديس الذهب والفضة، وإنه من أشد الناس حباً للمال، وإنه يقتات هو وأولاده من بقايا الطعام التي ترسلها هيلة إليه بعد كل وجبة.

الأستاذ الموقر دحيم السعد كان منهمكاً في رواية الورطة التي وجد نفسه شريكاً فيها بعد مضي ساعات، أثناء زيارة عبدالله الحمود له في بيته، قال: (كنت أنا وعبدالكريم الشلوة على موعد مع دمعان في الصباح الباكر قبل بداية الدوام؛ لأن هناك أمراً هاماً يجب تنفيذه وصادف وصولنا مع بداية المشكلة. وعندما تدخلت لفض النـزاع وجدت نفسي فجأةً شريكاً فيه، وقد وقعت الواقعة وما كان باستطاعتي التراجع).

قال المدير: ومع هذا فأنت معلم قدير ولا ينبغي لك أن تفعل ما فعلت، وكان في يدك حلول كثيرة تستطيع استعمالها، ولكنك كما كنت دائماً لا تستطيع أن تثبت لنا وللجميع أنك فوق التفاهات وعمل الجهال.

دحيم السعد: أرجو عدم المؤاخذة يا أستاذ عبدالله، وتأكد أنني مجبر وليست رغبة مني، ولولا تلك العجوز الشمطاء التي عضت أنفي ولم تتركه حتى أغمي علي ما اشتركت بها.

المدير: وهل دخلت الحرب مع عجوز شمطاء وفعلت لك هذا؟.

دحيم: نعم يا أستاذ عبدالله ولو رأيتها لصدقت ما أقول.

المدير: ومع ذلك لم تنتصر، وانهزمت بسرعة، وكادت أن تقضي عليك؟.

دحيم: هذا ما حصل يا أستاذ عبدالله.

المدير: يؤسفني ذلك، ولكن أريد منك أن تنظر إلى ما بين فخذيك وتتأكد إن كنت رجلاً أم لا!.

احمر وجه دحيم السعد خجلاً وتمنى لو لم يحصل هذا اللقاء المباشر، ولكن واصل الأستاذ عبدالله حديثه قائلاً: (عندما يسمع الإنسان تلك الكلمات الكبيرة التي تتفوه بها، يعتقد أنك تستطيع أن تهزم جبلاً، ولكن حين تترجمها على أرض الواقع تسقط مهزوماً على أيدي أول دجاجة تلتقط أنفك).

الأستاذ عبدالله الحمود يقول هذا وهو متأكد أن الثلاثة يخططون هذا الصباح لابتلاع فريسة، وينسجون خيوط العنكبوت لاقتناصها، ولكنهم وقعوا فريسة لأول عنكبوت صادقة تملك حريتها وتنسج خيوطها بأي أرض كانت.. لماذا؟ لأن الخيوط التي نسجتها العنكبوت خيوط حقيقية عملتها بصافي أتعابها وأتراحها ولم تتلق مساعدة من أحد.

أقسمت هيلة عندما شاهدت أخاها على هذه الحالة أن تأخذ بثأره وأن تجعل البدو عبرة لمن اعتبر، وأن تجعلهم مداراً للحديث على طول الزمن، وأن تجبر طاباش على عقابهم عقاباً شديداً، والويل كل الويل لو لم يحصل هذا.

كان دمعان يحكي القصة وهو على فراش ممدود، وأخته تسمع وتبكي وتقسم بالأيمان المغلظة أنها ستغادر بيت طاباش بدون رجعة إن لم يأخذ بثأرها.

دمعان يسمع هذا العنف وهو لا يريد هذا، لأنه يعلم أنه لو نفذت هيلة ما أصرت عليه ولم يستجب لرغبتها، فإنها سوف تذهب إلى بيته لأنه أخوها الوحيد، وإن بيته خالٍ تماماً من وسائل الحياة، قال: (اعقلي يا هيلة وما ينفع هالكلام وإن استمريتي تقولين كذا والله.. والله لا قوم وأروح).

هيلة: (طيب يا اخوي ها أنا ساكتة ولكن تبينا نسكت وما نطالب بحقنا؟).

دمعان: (نبي نطالب بحقنا ولكن ماهوب كذا، زوجك ما يقصر بشيء بس الأمور تحتاج إلى كلام آخر غير اللي تقولين).

أثناء الحوار دخل طاباش محدثاً صوتاً للإنذار المبكر، يدل على غضبه الشديد من أولئك الذين فعلوا ما فعلوا، وأن العقوبة أصبحت قاب قوسين أو أدنى، وأن الغد لناظره قريب، كان يعبر عن هذه الأشياء لأجل أن يسمعه الحاضرون من أهل البيت، ويصاحب هذه الانفعالات صوت عصاه وأخفافه. التي تدك الأرض دكاً.

فوجئ طاباش بوجود دمعان في بيته عندما لمحه وهو قادم، فزاد الغضب شدةً، وتضاعفت ملامح النفاق. عَبر عن هذه عندما وقف أمام دمعان وهو متكئ على عصاه الغليظة، قال وهو يسرح لحيته بيده: (الحمد لله على السلامة وهذي والله الساعة المباركة واسفرت وانورت، الدار دارك قبل ما تكون دارنا، وأنا يا دمعان كنت أفكر أرسل لك تجي عندنا وهذا الله جابك، أما هذولا المجانين والله.. والله لا خليك تتفرج عليهم بس اصبر شوي، والبعيرصي يعطينا الإشارة وبعدها تعال شف).

كانت هيلة تسمع هذا الكلام وهي تشاهد طاباش وهو يعبر عن هذه الأشياء العدوانية، وترد عليه بنظرات مختلطة بين المعاتبة والغنجة، وكلما سمعت عبارة إرهابية ترد عليها بهزة من رأسها إلى أعلى، وبعيون يختلط فيها الغنج المصطنع مع الرغبة في البكاء.

أجاب دمعان: (الأمر بسيط يابو دحمان والجرح الكبير انسد ولله الحمد، وأنا ما شكيت بك يوم من الأيام، وأعرف إن الدار داري ولولا هيلة وحرصها عليّ ورغبتها أني أكون هنا ما جيت، والمسألة أسبوع أو أسبوعين والأمور تزين وبعدها معروفك على العين والرأس).

عندما سمع طاباش أن المسألة أسابيع ابتلع ريقه بصعوبة وحاول أن يتماسك ويعبر عن فرحته بهذه الضيافة، قال: (المعروف لك يا دمعان) وقال أيضا: (كلنا لهيلة، وهيلة أم الجميع).

دمعان كان مشغولاً بهذا الزنبيل الكبير الذي أحضره طاباش، كان همه الأكبر وشغله الشاغل أن يطّلع على محتوياته، بدأ يلخسه على حين غرة.

قال: (عسى بس ما تكلفتوا بشي) يريد من طاباش أن يفصح عما بداخله. قال هذا وهو ينظر إلى الزنبيل، رد طاباش: (ما هنا كلافة تسوى، حقكم علينا كبير، وهيلة تطلب وحنا ننفذ).

سألت هيلة سؤالاً أنهت به تلك الحيرة التي تبدو على دمعان قالت: (وش في وسط الزنبيل يابو دحمان؟).

أجاب طاباش (أبدا.. ذبيحة.. وشوي علاج للجرح).

حاول دمعان أن يسترد لعابه عندما سال، بعدما سمع بالذبيحة ولكن افتضح أمره أمام الجميع، حاول طاباش أن يتماسك ويخفي تلك الضحكة، أما هيلة فقد طأطأت برأسها خجلاً وأصبحت في موقف لا تحسد عليه.

حاول دمعان أن يضفي على الوضع وضعا معاكسا عندما قال: (الله يجعلها دايمة وعزك باقي يسمعه الصديق والعدو).

***

كل هذه الأشياء تحدث في الحفرة ومساعد الأمير (صحن بن شمروخ) مشغول جداً في تحضير مستلزماته ورحلة القناص القادمة، وخاصة في هذه الأيام المطيرة التي تؤكد ملامحها كثافة الصيد هذا العام.

قال صحن وهو يحدث آبا شينان: (خط خطين وامح الثالث السلقة "قطنة" لا بد ما تخاوينا هالسنة).

رد أبو شينان: (يا طويل العمر لا تنس يوم حنا بالقنص قبل سنتين وهديناها على الظبي كانت تموح وما ترد نفسها لين ضاع الظبي).

مط صحن شفته وأبرم سبحته بقوة بين إصبعيه، ثم قال (يوم هي ضعيفة واليوم بحر فيها زين). سكت أبو شينان بدون قناعة بما قاله ابن شمروخ، ولكنه عاود الكلام مرة أخرى، قال: (تسمن يا خريفنا ونجسك). بدأ صحن بن شمروخ يبرم شاربه وبعد لحظة قال: (والدربيل لازم ومهم لا تنسونه، وترانا نبي هذاك الدربيل أبو تاج وغيره ما نبيه). سكت قليلا ثم أردف قائلا: (أبو تاج.. أبو تاج عز الله إنه صناعة قوية وبس). مط شفته وأبرم سبحته بقوة وتحسس شاربه ثم قال: (أبو برنيطة يصنع العجايب). بعدها تقدم خطوتين ثم التفت ناحية أبي شينان وقال: (أبو تاج وقطنة هن عدة الصيد وغيرهن لا تصيد).

* * *

في الظهيرة المبكرة صدر الحكم على أم دوشان ومن يتبعها بالجلد والتغريم عن الدماء التي سالت، ومن ثم الطرد من الحفرة وإلى الأبد ما عدا أبو شلهوب، فإن الحكم يكتفي بجلده عشرين جلدة فقط، ويحذر بعدم المعاودة إلى هذه التصرفات المشينة، وإن بلدان الله محكومة برجال عاهدوا الله على استتباب الأمن، لا يخافون بالله لومة لائم، ولا بد من مجازاة المعتدين مهما كانت الظروف ليبقى الجميع آمنين مطمئنين في ديارهم لا يخافون إلا الله، لهذا سوف يقوم طاباش بالتنفيذ وبأسرع وقت ممكن، وإن أمكن فليكن بعد صلاة العصر مباشرة، بدأت الاستعدادات لتنفيذ الحكم بالرغم من المحاولات المستميتة التي قام بها صياح ومن معه، طرق الأبواب كلها حتى باب طاباش طُرِق، ولكن طردوا في النهاية وباءت محاولاتهم جميعها بالفشل.

سحبت أم دوشان إلى سوق النساء وقد قامت بجلدها (شما السماوي) الجلادة المعروفة في الحفرة، والمتخصصة في جلد وذبح النساء المذنبات. كانت زوجة الجلاد الإرهابي خسارة، وتملك دكاناً في سوق النساء تزاول فيه البيع والشراء، وكانت تقضي وقتها بالصراع والمنافسة وخاصة مع مضاوي أم خشمان، والآن جاءت اللحظة المناسبة التي تنتظرها منذ زمن، لتثبت لهؤلاء الدلالات أنها فوق الجميع. وأنها إرهابية حقيقية، وأنها بهذه العصرية المباركة سوف تمارس الإرهاب على مرأى ومسمع من الجميع، لعل تلك الدلالات يعرفن جيداً من تكون (شما السماوي) ويعرفن أيضا أنها قادرة على أشياء كثيرة، وخاصة عندما كانت تقوم (بصب الرصاص) على رؤوس المجانين وتظهر الجن بالقوة، إنها

لا تريد من مضاوي في يوم من الأيام أن تستهزئ بها وتروج الحكايات التي تبين أنها لا تستطيع أن تعالج فارة، وها قد أتى اليوم الموعود، ولو أن الرغبة بالذبح أفضل، وأشد رهبة، وتلعن الحظ السيئ الذي جعلها جلدا.

كانت مضاوي أم خشمان تعبر عما يجول بخاطرها أمام النساء اللواتي تجمعن في السوق، وهي تلعن الأيام التي جاءت بمثل هذه الإرهابية، وتؤكد أيضا أن شما وزوجها خسارة ترجع أصولهما الأولى إلى الجن والشياطين، وتؤكد أن هؤلاء الناس ومن على شاكلتهم، والذين لا يحملون قلوباً رحيمة يجب طردهم من الحفرة، وما تلك السيول التي لا تنقطع إلا غضب من الله سبحانه وتعالى على الجميع، قالت منهية كلامها: (كلها شياطين بشياطين).

الجازية أم دوشان لا تبدي ولا تعيد وتحتج بشدة على ما يحدث لها عندما سحبت على وجهها، وكانت تستغيث بفرسان القبيلة الموجودين هناك في الصحراء البعيدة، تحت منحدرات الجبال وفي بطون الأودية، وفوق الأرض الواسعة، حيث تنطبق السماء على الأرض في التحام أبدي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

لأول مرة تكتشف الجازية أن النخيل التي خلقت لإنتاج التمر، الطعام الرئيس لأوادم الصحراء الذين لا يعرفون غيره، يمكن استعمالها لإرهاب وتعذيب الناس، وما هذه الفروع الطويلة التي تحاول أن تكون جميلة المظهر أمام الملأ إلا ثعابين تلدغ من يحاول الدفاع عن نفسه، بدأت الجازية تكرر استغاثتها الحزينة التي لا يسمعها أحد، تعود بعدها لذكرياتها الأليمة وتحاول الاستغاثة بها لعل الأموات يفعلون شيئاً، صاحت بأعلى صوتها: (وينك يابو دوشان وينك يا مرهب الرعيان) عندما أحست الجازية بقوة الجلد، وأنه بدأ ينبش لحمها صاحت على شماء: (هودي.. هودي يالقحبة). ضاعفت هذه العبارة الغضب الشديد، وبدأت شماء تجلد بعنف لأنها شعرت بالإهانة، وخاصة أن الدلالات المعاديات يتفرجن ويسمعن ما قيل، في نهاية العنف ومع آخر جلدة عدوانية، فقدت وعيها وبدأت تهذي وتستغيث بآخر أوراقها: (نزهان.. دوشان). في نهاية الأمر بالت على نفسها، ولجأت إلى الغيبوبة وانسحبت إلى الداخل، ولم يبق من مظاهر الحياة إلا هذا الجسم الدموي الممزق، في نهاية المطاف حملت الجازية على الأكتاف، لتضم إلى الأشلاء الأخرى الممزقة هناك في وسط السوق.

(اسمع يا دوشان أنت وخويك وأمك لكم بالديرة اليوم وباكر، أما اللي عقبه لا نشوف وجوهكم وحلالكم بعد هالمرة لا تجلبونه في الديرة، أنت سامع؟).

كلمات سوداء تشبه الشهب أو رجوم الشياطين، عندما كان طاباش يقذفها على أولئك المعذبين في الأرض، كانت أطيازهم تفرز دماء وأشياء أخرى كريهة الرائحة نتيجة المعاناة وقوة الردع التي حاقت بهم، قال أيضا: (خذينا من فلوسكم ثلاث مية قطعة للرجال اللي أنتم عورتوهم، وما باقي إلا هالعشرين خذها يالغليم).

أجاب دوشان: (سم يا عم).

قبل آن يغادر طاباش المكان التفت ناحية أبي شلهوب وهو يتألم، قال: (وأنت يا هذا).

- (وش تبي؟).

- (سمعت الكلام زين؟).

- (يكون خير يا طاباش، واللي عند الله قريب، والله عالي ما يعتلى عليه).

كان أبو شلهوب يرد على طاباش وهو ممسك بأضلاعه المهشمة، ويتظاهر أمام الجميع بأنه سليم معافى، وخاصة أصدقاءه الواقفين القلقين عليه أشد القلق.

كان طاباش يتمنى هذه المناسبة، وينتظر اليوم الذي سيأتي بأمثال أبي شلهوب وهو مرتكب خطيئة لأنه كما يقول: (أبو شلهوب وصياح وطقتهم إعيال حرام).

ما كاد طاباش يخلي المكان إلا والرجال ينكبون على أبي شلهوب. حاول أبو شلهوب أن يتظاهر أمام الأصدقاء بأنه معافى، وما هي إلا رضوض بسيطة، كان يقول هذا وهو يشعر بالألم الرهيب.

أثناء الهرج والمرج فوجئ الجميع بتلك الصرخات المدوية من الجهة التي طرح بها دوشان، بدأ يصرخ صرخات جنونية تدل على أن الشيطان بدأ يدخله من جديد، طلب أبو شلهوب من الرجال أن يشدوا وثاقه قبل أن يرتكب حماقة لا تحمد عقباها. تراكض الجميع وشدوا وثاقه بصعوبة بعدما عض الكثير منهم، وتدخل أحد الحافظين للقرآن حيث تلا عليه بعض السور، لعل هذا الشيطان الذي داخله يخرج منه بسلام ودون خسائر.

كان نزهان يقف بين الجميع مستسلماً هادئ الطبع، لا يتفوه بأي نبحة تذكر، كان يقدر الموقف جيداً وكان يدرك أيضاً أنه يجب أن يتوقف عن الحماقات التي يرتكبها عادة، لأن الأراضي التي يوجد بها حالياً مجهولة، وأن المعتدين يملكون الإمكانات الكبيرة، وأن أي محاولة منه تعتبر مهزومة مقدما.

بحنكته السياسية وتجاربه السابقة أثناء الحروب التي دخلها مع الكلاب الأخرى، أدرك جيداً أنه سوف يمنع من دخول الحفرة، وسوف يفرض عليه عقوبات شديدة، حتى النباح سوف يصادر من فمه، لو ارتكب نزهان حماقة في هذا الموقف سوف يجلد ويمنع من ربط علاقات مع كلاب أخرى، وسوف تعلق في رقبته عبارة تقول: (أنت كلب أحمق ولا تستطيع أن تحمي أحداً ولذلك يبطل مفعولك).

كل هذه الأشياء كانت محفوظة في ذاكرة كلب، لذلك توقف نزهان عن المزايدات في لحظات الحيرة التي تنتابه في المواقف المشابهة، وخاصة عندما تكون مواقف بشرية لا

يستطيع معها التفكير أو الخروج بقناعة مرضية تجعله يواصل النباح أو المناورات الحيوانية، التي تنتهي آخر الأمر بنتيجة.

كان نزهان يعرف الجنون، ويعرف كيف يتعامل مع المجانين وخاصة عندما يتعامل مع دوشان، ولكن ما يحدث الآن ليس بجنون، إنه من نوع آخر، إنه يشبه ذلك الحقد والكراهية التي تجاوزتها الحضارة الحيوانية منذ زمن بعيد. لذلك فإن نزهان يرفضه جملةً وتفصيلاً ويمتنع عن أي مبادرة تجعله يأكل ثمنها كتلك الكلاب الغبية، التي قضت نحبها دهساً في وسط الزحام.

إنها لعنة من لعنات القدر، وموقف لا يحسد عليه أحد.

عندما تفوه بها أبو شلهوب أمام الأصدقاء وهم يحملونه إلى الخيمة مع بقية المظلومين، كانت عائلة أبي شلهوب مضطربة ولا تعرف مصيره، وها قد حضروا، وبدأ الشوق والتلهف والمساء الرطب الحزين يحاصر المسافات البائسة الجائعة التي تبحث عن شيء تأكله. كان عواء الذئاب وبنات آوى وثغاء الشياه المتعبة، وحنين النوق الذي يعبر عن ذكريات مضت، ورعاة يغنون غناء العودة بأصوات تطلب الموت أو الحياة، عند هذه اللحظات بدأت السماء تغتال كل شيء على هذه الأرض الصفراء، خرير الماء يتزايد شيئاً فشيئا، والسحب تتجمع وهي قادمة من مواقع أخرى، والليل بدأ يسود بشدة وكأنه يخفي تلك العمليات السرية التي تقوم بها السحب.

استأذن صياح وبقية الشلة، بعدما تأكدوا من الحالات المعذبة. وهم بطريق العودة تراودهم الشكوك عن حالة أبي شلهوب بالذات؛ لأنه جلد بقوة تنم عن حقد دفين.

قال حميد الأصمخ: (أما أبو شلهوب والله إني أشك بعافيته أما العجوز ما عليها).

رد عيد الساكت: (طاباش الملعون كان يقصد أبا شلهوب ويتمناه من زمن).

قال صيَّاح: (الله يجيب العواقب سليمة... يا من بلي يا من صبر.. وهالحين شدوا رجليكم لعلكم تاصلون عيالكم قبل السيل). قبل أن يتفرقوا بلحظات توقفوا عند مفترق طرق وهم يحسون بمرارة القهر والظلم، إلا أنهم يشعرون بأن لكل شيء نهاية، وأن للظلم جولة وللحق جولات.

قال عيد الساكت: (لو جانا أمير بدل اللي راح ما صار اللي صار).

رد صيَّاح: (أنت ما تعرف الحفرة إلى هالحين).

- (وشلون؟).

- (الحفرة آمرها بيد طاباش وجنوده، يجي آمير جديد آو ما يجي).

- (ولو، لو كان بها أمير يحد من ظلم هالظالم).

- (طاباش وجنوده ما يحد من ظلمهم شيء مادام الناس ساكتين وراضين، ومادام البعيرصي يشرع وطاباش ينفذ والناس يصفقون للشر).

رد حميد الأصمخ بعد أن فهم بالإشارة أو لم يفهم قال: (الحفرة تبي لها ريح تدفنها وأهلها، تريح وتستريح).

رد صيَّاح: (وهذا هو العلم الأكيد، البلا بداخلها، بجوفها وما جاها من برا).

كان الأستاذان أصحاب الأحلام المعتقلة يشاهدان ما يحدث في سوق الحلال عصر هذا اليوم من شدة الاختناق والاحتقان النفسي، رغبا في جولة صحراوية على ضفة الوادي الملتف، وكان مدار الحديث هذا السر الغامض والعلامة المحيرة.

سأل الأستاذ كاكي: لماذا الناس يزغردون عندما يمارس الإرهاب؟

أجابه الأستاذ عبدالله: وأنا لم أتوصل إلى معرفة هذا السر، ولكن كل ما أعرفه أنك يجب أن تكون إرهابياً لتعيش سعيداً.

كاكي: هل هذا من شروط الصحراء؟.

عبدالله: لا أعرف ولكن كلما كان هناك إرهاب ازداد الناس حيوية ونشاطاً، ورغب الرجال في الجماع في هذه الليلة.

كاكي: والغريب يا أستاذ عبدالله أن تلك الحيوية والنشاط تزداد مع التعاسة والفقر والحرمان.

توقف الأستاذ عبدالله وهو يضع يده خلفه متجهاً بنظراته نحو الأستاذ كاكي قال: (اسمع أيها القادم من البعيد، يا من عشت على ضفاف الأنهار الطويلة، إن ممارسة الإرهاب حق وطني وقومية حمراء إذا حُسبت بالأرقام المحلية، والانتصار واجب لا بد منه).

كاكي: وعلى من الانتصار يا أستاذ عبدالله؟.

عبدالله: المهم أن ننتصر على أي شيء.

كاكي: أما هذه فإننا نشترك معكم فيها.

عبدالله: جميعنا في الصحراء والهدف واحد.

كاكي: والهزيمة يا أستاذ عبدالله ألا نخاف منها؟.

عبدالله: لا توجد هزيمة، كلها انتصارات، المهم في الأمر أن ننتحر، ونوقع على الذل والمهانة، وما الهزيمة يا أستاذ إلا الطريق للانتصار الموعود.

كاكي: ومتى يأتي يا أستاذ عبدالله؟

عبدالله:: يأتي أو لا يأتي الأمر سيان، الأهم في الموضوع أن نسير في طريق الهزيمة ونستمر في تمهيد الساحة للمعركة القادمة، وما الإرهاب إلا ركن أساسي يجب ممارسته بقوة، ولو بالانتحار إذا تطلب الأمر.

كاكي: معنى كلامك يا أستاذ عبدالله أن البناء يوازي الهدم والانتصار يوازي الانتحار، والمفهوم العام لكل هذه الأشياء أن الهزيمة مصدر من مصادر الحيوية والنشاط.

عبدالله: أعتقد ذلك وكنت أعتقد فيما مضى أن التغيير يحتاج إلى قيادات صالحة، وها هي قيادة الصحراء وحَّدت الجميع وأدخلت تغييرات كثيرة وبشق الأنفس، وحفظت الأمن والاستقرار، وكثرت أموال النفط في البلدان وماذا في النهاية؟

كاكي: لا شيء يا أستاذ عبدالله، لا أرى شيئاً يلوح في الأفق ولكن ما هو السر يا ترى؟

عبدالله: السر أيها الأستاذ المعظم يكمن هناك... يكمن في فحيح الصحراء، يختلط مع رائحة الجمل، وبين طيات عكرة الضب وتحت ظل شجرة العوشز، مع الرياح، مع العواصف، بين الصخور، وفوق الرمال المتحركة.

توقف الأستاذ عبدالله فجأة، سكت قليلاً، ثم عاود الكلام، قال: (أصدقك القول أيها الأستاذ المعظم؟).

- نعم قل ما لديك.

يجب أن أهاجر ولو أني تجاوزت الخمسين، ويجب أن أحزم الحقائب مهما كانت النتائج، وأصدقك القول مرة أخرى أنك من العوامل الأساسية التي أثارت لدي هذه الرغبة.

كاكي: أنا يا أستاذ عبدالله؟

عبدالله: نعم أنت جعلتني أرمي بجميع أوراقي بهذه المناسبة، وحركت في مهجتي جروحاً كانت خامدة والآن بدأت تتقيح، وخاصة عندما شاهدت ذلك الموقف الأليم الذي حصل

عصر اليوم لهؤلاء الممزقين.

رد الأستاذ كاكي بدهشة وقال: تنهزم يا أستاذ عبدالله بهذه السهولة؟، يجب أن تقاوم.

عبدالله: لا أرغب في المقاومة ولا أرغب في الحياة السعيدة لأنني مت منذ زمن، والشيء الوحيد الذي سأكسبه من هذه الهجرة أن أُدفَن تحت منابع الحياة، لعلني أستفيد من رائحة الحياة وأنا ميت!.

كاكي: رائحة الحياة...؟ رائحة الحياة؟.

عبدالله: نعم رائحة الحياة ولو مرة واحدة وأنا ميت.

أجاب الأستاذ كاكي بكل ثقة وقال: لن تستطيع يا أستاذ عبدالله أن تشم هناك رائحة الحياة ولو وقفت على المنبع.

- لماذا؟ هل تشك في أهدافي وأحلامي؟

- سوف تحمل معك جذور الهزيمة والإرهاب، وسوف تروج لها في تلك البلاد الرطبة، وسوف ينضم إليك زمرة من المنهزمين، وسوف تتحول إلى صحراوي أحمق تزاول ما يزاوله طاباش هنا، وسوف تحاول في نهاية المطاف، واليأس يبقر صدرك، أن توصي لأحد القادمين أن يجلب معه بذرة من بذور العوشز لتبذرها في بلدان الحياة، وليكن في علمك يا أستاذ عبدالله أن البذور سوف تغرق وتموت من كثرة المياه؛ لأنها لم تعتد على الفيضان.

اقشعر وجه الأستاذ عبدالله واصفر لونه وبدا عليه الانفعال واليأس وقال: كلما فتحت جبهة من جبهات الأمل توصدها أمامي، لماذا أيها العظيم الفيلسوف؟

أجاب الأستاذ كاكي قائلاً: لأنني أعرف جيداً أنك مدير ثانوية، ومدير الثانوية يجب أن يبقى، وخاصة أمثالك، لتصبح ضحية من ضحايا الصراع السمينة، هل تريد من صحرائكم أن تضحي بأقل منك لحماً؟، وهل تريد أن تكون الضحايا من هؤلاء المقذوفين على قارعة التاريخ؟ أن تقدم نفسك، وما أقل من النفس يقدمها أصحاب الأحلام الكبيرة.

توقف الأستاذ عبدالله وسأل: وأنت أيها الأستاذ: لماذا لا تقدم نفسك؟ أليست صحراؤنا واحدة؟، ثم ألم تأت أنت وتقول بعظمة لسانك: يجب أن أكتشف الصحراء قبل أن أعمل شيئاً؟

أجاب الأستاذ كاكي قائلاً: هذا فيما مضى، أما الآن فالنظرة تختلف، وخاصة عندما اكتشفت مقدماتها.

عبدالله: كيف؟ وضح ما تقول، كأنني أرى ملامح هزيمة!.

كاكي: إنني يا أستاذ عبدالله سوف أختصر الزمن والمسافات الطويلة، سوف أغادر قبلك، وهذا قراري ولن أتراجع عنه أبداً لأنني رأيت المستحيل يلوح في الأفق، وأزيدك علماً أنني جهزت الحقائب وفي نهاية آخر حصة دراسية سوف أقلع ولن تراني بعدها أبداً.

عبدالله: هذا هو قرارك الأخير؟

كاكي: نعم ولن أحيد عنه.

عبدالله: أنت قبل قليل تحثني على الصمود والآن تنهزم بسرعة؟

كاكي: لكل مذبوح أرضه، ولكل ضحية مبرراتها، وأعتقد أنك سمعت نشرة الأخبار ليلة البارحة وسمعت الخبر السيئ عن بلادي، وسمعت بوادر الهزيمة التي بدأت تلوح في الأفق، وأنا مضطر للعودة والصمود هناك لأقف موقف إسماعيل من الضحية.

كان هذا الحوار تدور رحاه على ضفاف الوادي، عندما توقف أمامهم رجل صحراوي يركب جملاً، قال: (أنتم يالحمران وين الطريق لباب الديرة؟).

أجابه الأستاذ عبدالله: في طريقك سوف تجده.

ضحك الجميع وقال الأستاذ كاكي هذه العبارة: (بدأت الهدام تؤتي ثمارها على أكمل وجه).

قال الأستاذ عبدالله: ومع هذا تبخل عليّ بالهجرة.

رد الأستاذ كاكي قائلاً: فلنهاجر معاً.

في طريق العودة إلى الملجأ والأمطار تتزايد، عرَّج صياح على نوقه الست ليأخذها معه، وكان الوقت بين العشائين، وجدها في مكانها لم تتحرك، ولكنه سمعها تحن جميعها والملحا قائدة الحنين، وكأنها تشعر بالأحداث التي حصلت بالسوق لأهلها الأوائل الذين جُلِدُوا قهراً، وشعرت أيضاً بأن أثمانها ذهبت قصاصاً.

اعتلى صياح الملحا ونادى على البقية وهي تواصل حنينها، كان صيَّاح يحن معها ويغني:

(يا جر قلبي جر لدن الغصون ... غصون سدرٍ جرها السيل جرا)

كان يغني ويبكي من الداخل، كان يبكي على زمن قد مضى وأخذ رجالاً يعتد بهم، كان يقول: زمن الرجال قد ولى ولم يبق إلا الذئاب الجرباء التي تأكل نفسها حقداً وكراهية، بعدها يواصل الغناء الباكي:

(لو البكـاء يا ناق عني يحلها ... بكيت لين العين ييبس ثمالها

ولو البكاء يا ناق يرجع بغايب ... بكيت بيض أيامها مع ليالها)

وصل إلى الملجأ وكانت أفراخه مضطربة لهذا التأخير الذي لم تعتد عليه، استبشر الجميع بوصوله ولكن طبق القرصان المبلولة بمرق اللحم قد برد كثيراً، مما جعل طويلة تعيده إلى النار مرة أخرى.

في هذه الليلة المشؤومة، كما أطلق عليها صيَّاح، توالت الأمطار حتى الصباح والجميع أصيبوا بخيبة أمل، من كان يخطط للعودة عند الصباح يئس من ذلك، ومن قاوم داخل الحفرة بدأ يفكر بالهروب، حتى أهل القصور المنيعة خافوا، وبدأت الاستعدادات للهروب، حتى طاباش خاف هذه الليلة وقرر الهروب، ولكن عند الصباح إذا استمرت كذلك، بدأت في هذه الليلة أشياء كثيرة حاسمة، ونقاط مبهمة لم يتم الإجابة عنها، ما معنى معاودة السحب من جديد؟.

انتشر بين الناس خبر مفاده: (إن الذين جلدوا عصر هذا اليوم كانوا مظلومين، وإن ما يحدث الآن هو غضب من الله على الناس جميعاً، وإن الدعوات والاستغفار واجب يجب القيام به والبراءة التامة مما حدث).

وبالجهة المقابلة خبر آخر يقول: (إن ما حدث هو غضب من عند الله بسبب وجود البرقية والمدارس الجديدة والعملات الورقية التي تحمل صوراً، كما أن السياكل رجس من عمل الشيطان، لهذا حاق الغضب والعذاب).

كلا الخبرين بدآ يطبخان على نار هادئة بين أروقة الخيام المنصوبة هنا وهناك والأمطار تواصل عملها.

أما تجار الفرص والمنتفعون العامون، فإنهم ينتظرون ما تسفر عنه، وبعدها يركبون الأمواج الملائمة التي توافق مصالحهم.

هناك من ينقل الخبرين ويزيد عليها أخباراً أخرى، والأشياء كلها تتفاعل مع بعض بانتظار صباح حامٍ يشتغل به جميع العاطلين عن العمل.

أكثر الناس وجد مأوى أو لم يجد، المهم في الأمر أن الأمطار ما زالت تهدم وتمسح الأشياء من حولها.

لقد وفرت الذئاب وبنات آوى ملاذاً للبشر وأخلت لهم جحورها، وهي تكاد أن تذكِّرهم بالخطيئة الأولى التي ارتكبوها عندما هاجروا إلى هذه الأراضي الممنوعة. فهد القطوة بصق على بنت آوى لما شاهدها وهي تكاد تضحك عندما كان يحفر مأوى له تلك الليلة، بصق بصقة ارتدت إلى صدره واختلطت بالتراب.

قالت بنت آوى لفهد: (اسمع أيها المجنون لقد فات الأوان، لماذا لم تتعلموا منذ أتيتم إلى هنا أول مرة؟ لن تستطيع أن تحفر شيئاً، سوف تأتي الهدام والرياح الغبية وتدمر ما حفرت). حذرها فهد وقال: ابتعدي أيتها الزانية إنك تتآمرين مع الذئب على أبناء جلدتنا، ابتعدي وإلا!

لم تكترث بنت آوى بتهديداته واستمرت باحتقاره وكأنها تقول: لن تستطيع أن تنفذ تهديداتك لأنك مهزوم، مهزوم حتى الثمالة.

لم يستطع فهد القطوة أن يقاوم فتنحى وبكى، تراءت له بنت آوى وهي تضحك مرة ثانية وكأنها تقول: (هكذا أنتم عندما تنهزمون فإنكم تصرخون كثيراً، أتعرف لماذا؟ لأن الصراخ صفة المهزومين).

تركته بنت آوى وهو يصرخ وقبل أن تبتعد التفتت إليه ولسان حالها يقول: (جربوا الانتحار أيها المهزومون، فإنه أرخص وسيلة لعلاج الفشل).

حتى خشاش الأرض يستهزئ بنا، هذا ما فكر به فهد عندما كان يحفر مأوى له. وفكر أيضاً بأن جميع الناس المختبئين بالجحور لا يصلحون لشيء سوى الهزيمة وحدها، شعارنا الأبدي الذي لن نتخلى عنه مهما كانت النتائج.

في هذا الليلة الحزينة والمخيبة للآمال، بدأت أفكار كثيرة تطفو على السطح، وتتخذ أشكالاً وصوراً عديدة من الإحباطات وخيبات الأمل، والمحاولات العفوية التي أدت إلى ارتكاب حماقات مهزومة عندما فكر عبدالله القنار (أبو صالح) في مغادرة الحفرة ولأول مرة يفكر بمثل هذه الأشياء، بدأ من هذه الليلة يرسم الخطة بسرية تامة، لا يعرف عنها أحد إلا من أراد أن يغويه بمرافقته، كانت الخطة ترسم بليل وخلف الكواليس وتحت درج المساجد، كانت الوجهة إلى الشام والانطلاقة في ليلة ظلماء والناس نائمون.

وقع نظره على مجموعة ممن يرغب بهم ويريدهم أن يهاجروا معه، نجح في إغوائهم بهذا الأمر وسهل لهم الطريقة، ووعدهم بحياة كريمة أفضل من تلك الحياة التي يعيشونها.

كانت المجموعة تتكون منه شخصياً وعلي الأزرق وتركية الحبطاء وسند الهويريني وصاحب الحمار عربيد، أما المجنونة وضحى الخرماء فإنها لا تصلح للهجرة لأنها تفشي السر، وربما يهاجم شيطانها على حين غرة وهم في الطريق.

مبررات طرحها أبو صالح على أفراد المجموعة عندما رشحوها معهم.

أكثر الناس أكدوا فيما بعد أن السبب المباشر للهجرة ليس الأمطار المستمرة، وإنما الغضب الشديد الذي انتاب أبا صالح من تصرفات طاباش الهمجية، وما فعله أبو صالح يعتبر احتجاجاً شديد اللهجة لتلك المواقف المخجلة من الجميع، وأن هؤلاء السفهاء فعلوا شيئاً لم يستطع الشجعان من أهالي الحفرة أن يفعلوه، ولكن كانت الأمطار المتواصلة تلك الليلة هي القشة التي قصمت ظهر البعير.

من شاهدهم من الرعاة المنتشرين على طول الطريق الذي سلكوه، كانوا يؤكدون هذا الأمر عندما سمعوهم وهم يغنون أبيات الاحتجاج هذه.

الديرة اللي حكم بَهْ طويلان ... تنعاف لو صافي ذراها زمرد

اكتملت الخطة وحدد الموعد وأكد أبو صالح للجميع أن لا يبوحوا لأحد بأي شيء، قال: (اسمعوا يا جماعة، المشية بعد يومين، هالليلة راحت، وتروح الليلة اللي بعدها، والليلة اللي بعدها تكون المشية).

قال أيضاً: (إلا صار الليل ليلين نكون زهبنا حوايجنا والميعاد درج المسجد تحصلونني نايم تحتها، وأحذر صغيركم قبل كبيركم بالكتمان وقلة الهرج لا شوي ولا كثير).

وقال أيضاً: (وأنتِ يا تركية يا حبب... اسمعي ترى هالشوم ما صلحوه إلا لك وأمثالك، إن تكلمتِ لا تلومي إلا نفسك) كان يقول هذه العبارات الهجومية وهو يتحرك في مكانه جيئة وذهاباً ويلقي الأوامر بصفة عسكرية، والجميع يسمعون ويطيعون ما عدا علي الأزرق سأل سؤالاً وهو يحك مؤخرته قال: (يا عم أبو صالح ولا خالتي نورة العلي تدري).

نهره أبو صالح بشدة، قال: (ولا خالك ولا عمك، سمعت يا بس الموقد) قال أيضاً: (والله.. والله لأخلي المغراب أطهر منك يا ضراب الحرام.. سمعت).

رد علي الأزرق وهو يرتجف من الخوف، قال: (سمعت يا عميمي سمعت).

كاد العم أبو صالح أن يفضح أمره ويصرح بحبه الشديد لتركية الحبطاء، وذلك أثناء الكلام عندما فلت لسانه قليلاً، قد أدرك ذلك ولم يفتضح أمره إلا للحكيم الساخر علي الأزرق، ولو أن علي الأزرق تظاهر بالغباء وعدم الإدراك ليكون المجال مفتوحاً له في المستقبل عندما يرغب بالسخرية والهجاء، فيما لو ساءت العلاقات بينهما، أما البقية من أفراد الطيور المهاجرة مثل سند الهويري وعربيد، فإنهما لم يفهما شيئاً، ولن يفهما حتى ولو صرح بها واضحة؛ لأن كلمة حب لم يكتشفوها بعد، ولن يكتشفوها مدى الدهر؛ لأن الحب الحقيقي بالنسبة لهما هو كيف تمتلئ البطون!.

دائماً يعبرون عن حبهم للتمر أو اللبن أو حلة القرصان المتراكمة لحماً، ويترنمون بالغناء الذي يهدف لذلك، أما هذا الحب المرفه فإنهما لم يتعلماه ولو أن بهما خصاصة.

تفرقت الطيور للنوم وهم يحلمون بحياة سعيدة عندما يهبطون في بلاد الشام بأمان، جميع الأدوار وزعت والأعمال الحرة التي سيمارسونها هناك، وطمأن الجميع بأنه يعرف الطريق تمام المعرفة عندما كان يسافر في الزمن الأول، وقص عليهم قصصاً واجهها في طريقه زيادة في التطمين، ذكر لهم أنه استطاع في إحدى الرحلات العائدة أن يصد هجوماً قام به قطاع طرق، ولولا شجاعته ومهارته في الحرب لنهبت القافلة، أما البدو الغازون فإنهم انهزموا عن بكرة أبيهم بعدما أصيبوا بجراح عميقة.

سأل علي الأزرق، قال: (ولا جاك ولا طقة يا عم؟).

التفت إليه محمر العينين، قال: (يخسون الكلاب).

شعر الجميع بالارتياح العام لما تأكدوا أن الذي سيحميهم أسد، وأنهم بأمان حتى يصلوا إلى هناك.

كانت أدوارهم موزعة عليهم حسب الخبرات والتجارب، عربيد حمال ومعه حماره، سند الهويري يشتغل شحاذاً بصفته يمارس المهنة وخاصة لأنه ضرير، أما تركية فإنها سوف تعمل مرضعة للمواليد وتزاول الشحاذة في وقت الفراغ.

وأقنعها أبو صالح بأنه لن تمضي مدة على هذا العمل إلا وأبناء الشام جميعهم أبناؤها من الرضاع.

سألت تركية سؤالاً محيراً، قالت: (وين الحليب أنا ما فيني حليب يابو صالح؟).

أجاب عن هذا السؤال بكل دقة وثقة، قال: (الحليب يجي بس لا تستعجلين يا تركية، يمكن والله أعلم تزوجين هناك).

ردت بغنخ ورفض قابل للمفاوضة، قالت: (أنا ما أداني الشوام أو الزواج منهم).

أجاب بغطرسة ويقين: (لا... لا ماهوب شامي أقرب من الشامي شوي).

ظهر على وجهها الخجل البائس وطأطأت برأسها، وذلك من علامات الرضا الخدري.

(أما أنت يا علي.. الظاهر أنك عرفت شغلك) يقولها أبو صالح موجهاً الكلام إلى الحكيم الساخر بتعالٍ وثقة بالغة.

قال الساخر: الظاهر أن شغلي عند الشوام آقف بالعيَّر وبالأسواق أَسولف وأقرأ بالمصحف، وبالذات عندما آكل الزيتون يزين الصوت ويندهن الحلق.

رد العم أبو صالح بعنف: (لا.. لا يالغشيم أهل الشام ما يبون سواليفك يبون قرآنك). قال هذا الكلام وهو يدك الأرض بعصاه شاداً عضلات وجهه، عندما بانت أسنانه وهي منطبقة على بعض قال: (أغديك تصير إمام بأي مسجد من مساجد الشام، المهم يكون فيه غرفة أو غرفتين نسكن فيها وبعدين يكون خير).

رد الساخر وهو يحك مؤخرته بشدة: (أهل الشام يابو صالح يصلون غرب وإلا شرق).

أجاب أبو صالح بعصبية قال: (أوه... تراك أشغلتنا يا علي، شف وين يبون يصلون وصل هذي ما هي بمشكلة).

رد الساخر: (بس لا تعلمون خالتي نورة العلي وين صليت).

كان الجميع في عيونهم سؤال ولكن لا أحد يجرؤ على نطقه، كان سؤالاً مخيفاً. بعد لحظة صمت سأل الساخر عن هذا الأمر، سأل وهو يرتجف من الخوف، وقبل ما يسأل كان يهرش جسده من تحت إلى فوق، وهذا دليل واضح على قوة السؤال وعظمة القائد.

قال الساخر: (وأنت يابو صالح وشو شغلك)؟

فوجئ أبو صالح بهذا السؤال الذي لم يتمكن من الإجابة عنه بصورة قاطعة، تلكأ قليلاً ومط شفتيه وحاول اعتصار عقله لعله يجد الإجابة وأخيراً قال:

(أنا لا تحتارون بشغلي يمكن... يمكن أشتغل أمير أو عسكري، الشوام هناك ما عندهم أمراء وبحاجة ماسة للأمير، إن وافقت فهذا زين، وإن ما وافقت اشتغلت عسكري، أدرب

عساكرهم على المشية، وكيف يمسكون البندق زين، وقبل هذا وذاك أجمع أفلوسكم عندي وهذا هو المطلوب، بس أنتم لا تحتارون بشغلي، أنا ذيب والذيب يعرف زين وشلون يفرس الشاة).

كان هناك رد برأس الحكيم عندما قال: (بس أنا يابو صالح معي ثوب به مخباتين).

تناسى أبو صالح هذا الرد وحاول بقدر الإمكان الخروج من هذا المأزق خوفاً من تلاشي رغبة الجميع لهذه الرحلة.

كل هذه الأشياء كانت تحصل في ذلك العشاء الحزين الذي خيب آمالاً كثيرة وأسعد دمعان وأخته هيلة، وما تبقى من عفاريت الإنس والجن.

تأكد للجميع بما لا يدع مجالاً للشك أن نزهان يضمر نظرية جديدة اكتشفها هذا اليوم، عندما تعرف على مواقع جديدة غير تلك المواقع التي يعرفها وهو يحرس النوق في الصحراء، لقد اكتشف الإرهاب وواجه الذين يمارسونه بوضح النهار وجهاً لوجه، وأدرك أيضاً أنه مخدوع بكل ما تحمله الكلمة من معنى عندما رضي بالعمل لدى الوسط البشري، وندم على ولائه ووفائه الأزلي لأولئك الذين لا يستحقونه، وعرف أن الوسط الإنساني يزاول الحقد والكراهية على أخيه الإنسان، عبَّر عن هذه الأشياء عندما احتج، وأضرب إضراباً شاملاً، وبدأ يطلق أصواتاً غريبة تختلف عن النباح، استمر طوال الليل على هذه الحالة، لفت انتباه الجميع وعرف أهله أنه يمر بلحظات حرجة ولا يعرفون متى تأتي اللحظة الحاسمة التي يتخذ بها قراره الأخير.

في الساعات الأخيرة من الليل فقدوا هذه الأصوات ثم فقدوا نزهان، ومع أنهم بذلوا محاولات مستميتة في الصباح للعثور عليه ولكنهم عادوا بخفي حنين.

لما رجعت عائلة أبي شلهوب بدونه، كانوا يعتقدون أنه غادر إلى أراضيه وأوطانه التي عاش فيها، ولكن الجازية عبرت عن مخاوفها عندما قالت: (ما ظنتي إنه راح هناك)، بدأت تراودها الشكوك أن نزهان ذهب بدون عودة.

كانت الجازية مصرة على هذا الإحساس، ولو أنها متعبة جداً من آثار الجلد، وبالذات هذا السهر الذي صاحبها طوال الليل وشدة الأنين والأسى، ظهر على جلدها آثار العدوان، تمثل هذا بهذه البقع السوداء والعلامات المتورمة من شدة المواجهة، كانت تتألم طوال الليل من ألم الجراح، وهمومها على نزهان. ذكرت للجميع أنها لأول مرة تسمع نزهان يتفوه بمثل هذه الأصوات، ولأول مرة تعرف أن نزهان لديه قرار، وها هي أم دوشان تدفع ثمن تلك القرارات الصعبة التي تتخذها الكلاب، إن نزهان يعتبر اليد الطولى للجازية، لقد استفادت منه كثيراً كان يحرس الماشية، ويرعى الإبل أحياناً، ويستقبل الضيوف، ويحافظ على ممتلكات القبيلة، ويحرض بقية الكلاب على مواجهة الأعداء، إنه يعتبر العين السرية للجازية إذا

احتاجت في وقت من الأوقات للإنذار المبكر، بالإضافة إلى بعض الهدايا التي يحضرها عندما يصطاد أرنباً أو جربوعاً.

ذكرت بعد سنوات من هذه الأحداث، عندما سئلت عن عمرها الحقيقي، ولماذا شاخت قبل أوانها، قالت: ثلاث صعبات مرن في حياتي.. موت أبو دوشات وجلد الحضران.. وهجة نزهان.. والرابعة الله يكفينا شرها).

كانت الجازية تبرر الشيخوخة التي غشتها قبل أوانها، ولو أنها تعدت الستين وفيما يبدو أنها تطمح للزواج، ولكن هذه الأسباب اللعينة هي التي تقف أمام طموحاتها التزوجية، وتجعل منها وكأنها عجوز عفا عليها الزمن.

أما أبو شلهوب فقد طلع عليه الصباح الممطر وهو في موقف لا يحسد عليه، ولكنه في الحقيقة مرتاح الضمير لأنه أبلى بلاءً حسناً وفعل ما يجب عليه فعله، دافع عن سمعة القبيلة، كما أنه قام بواجب الضيافة وإكرام الجماعة وعانى العذاب.

***

الفصل السادس

بدأت الحفرة في صباح السادس والعشرين من الوسم وكأنها خاوية على عروشها، الأسواق مغلقة، والطرقات تحولت إلى أودية، وسوق الحلال موحش ومقفر، وما تبقى من بيوت هزيلة سقطت أو سقط جزء منها.

والسادة الكبار أهل القصور المنيعة غادروها على عجل، حتى طاباش غادر قصره، وحمل دمعان وهو مثخن بالجراح، غادره إلى مخيم كبير نصبه رجاله من ذوي العصي العوج.

أما قصر المنصور العملاق، فإنه لم يتأثر بهذه السيول المستمرة، كان يسكن فيه البعيرصي. الناس يتذكرون هذا القصر عندما تثار هذه الأحداث فيما بعد، فكانوا يذكرون من مميزات هذا القصر أنه مبني فوق رابية رملية، وأن الأجزاء العلوية من جدرانه أحيطت بالإسمنت الذي دخل حديثاً إلى الحفرة، وأن جميع الطرق التي تؤدي إليه رُدِمت بالحواجز الترابية، والتي تمنع مرور المياه من جوانبه، أو الناس يذكرون أن البعيرصي اشتراه من صاحبه بصفيحتين مملوءتين ذهباً، وقد جمع هذه الأموال من جيوب البائسين الذين يقعون في فخ الديون الأليمة أصحاب الأحلام المهاجرة، لم ير منهم أحداً هذا اليوم، الجميع تحصنوا في مواقعهم، أما تلك الهجرة المقترحة فإنه مشكوك في تنفيذها ما دامت السيول تهاجم.

(وضحى الخرمى) شوهدت فوق كثيب من الرمل وعلى مسافات قريبة من الأسوار وهي تلتقط من الأرض (بنيات المطر) تلك الحشرات الحمراء الصغيرة والمحبوبة لدى الأطفال والكبار الذين فقدوا أجزاء كبيرة من عقولهم.

شوهد أيضاً صيَّاح وهو يلبس العباءة الكويتية ويعتلي الملحاء، وقد غادر بالنوق إلى المراعي المجاورة بعد عودته من زيارة قام بها إلى أبي شلهوب للاطمئنان على الحالات المستعصية، عندما عاد تناول فطوره المكون من "قرص الجمر" حيث تناول قطعة كبيرة منه، هذا القرص العجيب الذي يصنع تحت الجمر، الميزة الوحيدة لهذا القرص مقاومة آكله للجوع مدة طويلة من اليوم، يقول عنه الناس: إنه قرص الصحراء الأزلي، والانتصار الوحيد الذي حققوه بدون منازع على شهادة الأستاذ كاكي عندما تناوله أول مرة في بيت عبدالله الحمود، وتمنى عندما تناوله أن يفوز بقطعة أخرى وفي موعد آخر (شعر بعد تناوله بتلبك معوي)، وأحس عندما كان يتناوله بأنه يأكل تراباً، قال هذا الكلام لأحد المعلمين الأجانب الذي أوصلها بدوره إلى مسمع عبدالله الحمود فيما بعد.

بين مضارب الخيام وفي الطرقات البرية يتداول الناس معلومات نقلت من الغرباء القادمين من المسافات البعيدة، ذكر هؤلاء الغرباء أن السحب متصلة على جميع الأراضي وكلها ممطرة "من باب بغداد حتى يمن سهيل".

جميع السحب ممسكة بأذناب بعضها.

يذكرون أيضاً أنه هلك حلال كثير وأوادم أيضاً، وجرت أودية كانت مطموسة بالرمال منذ أمدٍ طويل، ولا شيء يشبه هذه الحالة إلا الطوفان الذي حدث بزمن سيدنا نوح.

ذكر أحد الغرباء الذي يملك قدراً كبيراً من التنجيم قال: (لقد اقتربت الساعة وحان موعد ظهور "المسيح الدجال" وإن هذه السحب سوف تجعل الشمس تشرق من مغربها، وإن جميع هذه الأشياء التي تحدث دليل واضح على اقتراب اليوم الموعود، وإنه فات أوان التوبة وإن أهل السياكل والعاملين بالبرقية والذين يدرسون بالثانوية هم أكثر أهل النار وقوداً، وإن الأوراق النقدية الجديدة من عمل المسيح الدجال، وإنه روجها سلفاً ليتبين من الذي على خطه ومن هو مخالف، ومن استعملها فهو من أتباعه وما على الجميع إلا وضع أعواد صغيرة من التبن على أرنبة الأنف ترغم السحب أن ترتد على أعقابها). في مغرب هذا اليوم الممطر لوحظ كثرة الشحاذين المتنكرين، وهذا دليل على أنهم كرام قوم نفدت المؤن منهم وهم يطوفون بين الخيام طلباً للطعام.

طلب صيَّاح من زوجته أن لا ترد أحداً منهم، كما طلب منها أن تضاعف كمية الدقيق الذي تطبخه استعداداً لاستقبال أفواج أخرى من الجائعين.

***

الفصل السابع

في صباح اليوم السابع والعشرين من الوسم، واصلت السماء هجومها على الأرض مما جعل التحركات يشوبها الحذر داخل البلدة. كان العم أبو صالح المتحرك الوحيد، وكأن الحفرة لا تملك غيره، كان يتحرك بطريقة هجومية غير قابلة للتفاوض، لأن الأمر يحتاج إلى حيوية لا معقولة كانت أقدامه تشبه -إلى حد ما- دواليب السيارة عندما تسير بأرض موحلة،كان الجهد مضاعفاً والخطوات واسعة والمسافة المقطوعة لا تتعدى أبواعاً قليلة. أراد أبو صالح أن يذكّر الجميع بأن الليلة هي الليلة الموعودة، ويجب على الجميع الترصد والانتظار حتى تحين أواخر الظلمة لتبدأ المسيرة الملهمة. كانت تلعب بأفكاره مشاغل عديدة وهموم صعبة، منها التمر الأشقر الذي لا بد من وجوده لأنه مسامير الركب، ويساعد على المشي لأيام كثيرة وأقراص الكليجاء (زهاب المغادرين). توقف حائراً وعاجزاً عن الإجابة ولكنه مصر على وجودها، قال وهو يدك الأرض المبلولة بعصاه: (التمر مسامير.. مسامير.. والكليجاء ندق به حنك وحنا نمشي) ولكن من يؤمِّن هذه المتطلبات الصعبة، حاول التفكير وحاول أن يجد طريقاً سهلاً يؤدي إلى الحصول على هذه الأشياء الخطرة التي لا بد منها، أصبح الاحتقان والصعوبة باديين على وجهه،كاد ينفجر، بدأ يهمهم ويزيد من دك الأرض وأخيراً وجدها، قال بعد الانفراج: (ما هنا إلا علي الملعون يجيبها من خالته نورة العلي). أدرك صعوبة الطلب،احتقن مرة أخرى، أطبق أسنانه، شد على شفتيه، دك الأرض بعصاه مرتين وهو يقول: (يجيبهن علي غصب على شواربه ويا ويله لو ما يجيبهن والله.. والله لأجعل خريانه تباري كرعانه وأنا أبو صالح، أخس يالساقط من الرجاجيل). قال أيضاً بعد برهة من الصمت والتفكير وهو متكئ على عصاه: (ما هي بصعبة، نورة العلي خبَّازة من أحسن الخبَّازات).

في قاعة المؤتمرات التي تقع تحت درج المسجد حضر الجميع بصعوبة، يعتبر الناس أن هذا الوكر الضيق السكن الأزلي للعم أبي صالح وأنه لا يتسع لغيره، هذا المكان الصغير شهد المحادثات العامة والخاصة والترتيبات الدقيقة لشؤون الهجرة المنتظرة.

حاول أبو صالح بكل ما أوتي من قوة بلاغية غاشمة، أن يقنع الجميع بطريقة الترتيبات المميزة التي رتبها، وأقنعهم أيضاً بعدالتها وأنها موزعة على الجميع بالتمام والكمال.

بعد توزيع الحقائب الوزارية ظهر من تلك الخطة أنه يعفي نفسه من سواقط المسؤوليات، ماذا يعني تأمين تمرة؟ وماذا يعني إحضار قرص من الأقراص؟ كل هذه الأشياء يجب أن يتحملها الضعفاء من الرعية، أما هو فإنه يحمل هموماً كثيرة: قيادة الحملة، والسهر الدائم على حراسة الوفد، كل هذه الأشياء تعتبر بنظره مسؤوليات كبيرة يجب أن يتفرغ لها بالكامل.

كانت الخطة تقتضي وجود الحمار الذي يملكه عربيد؛ لأن الحمار له فوائد كثيرة، منها -على سبيل المثال- وكما أراد أبو صالح عندما عبَّر عنها بصراحة وقال: (الحمار يشيل الثاية، والحمار نقدمه ضحية بديلة إلى هاجمتنا رعية من الذيابة، والحمار يفيدنا بالعمل إلى وصلنا إلى الشام على خير).

أما سند الهويري وتركية الحبطاء فهما مسؤولان مسؤولية تامة عن التمر بأي طريقة يرونها مناسبة، أما تأمين الكليجاء فإنه همٌّ كبير لأن هذه الأقراص العجيبة لا بد منها بأي رحلة كانت، وأنها تملك سراً عجيباً يجعل المسافرين لا يستغنون عنها أبداً، هذا الهم جعل أبا صالح يفكر بالطريقة السليمة التي تجعل الحكيم يقتنع بها ويذهب إلى خالته نورة ويحصل منها على كمية من تلك الأقراص، كان أبو صالح يعرف الصعوبة التي تحيق به عندما يبدأ بإقناع ذلك العلي الأزرق والساخر الخطير.

أدار بصره ناحية الحكيم فشاهده مسترخياً ورجله مثنية وعليها الطاقية المزركشة، وكان يتظاهر بالقراءة الصامتة هرباً من تحمل أي مسؤولية كانت، لما لاحظ الحكيم أبو صالح وهو ينظر إليه تظاهر بالنوم.

قال أبو صالح: (الكليجا يا ناس ضروري وما أحد سافر من جماعتنا إلا وياخذه، وحنا ولله الحمد عندنا الرجّال اللي يقدر يجيبها)، أحس الحكيم بالقصد عندما حاول أن يخرج من الموقف بسلام، فما كان منه إلا أن أطلق رائحة كريهة تشبه -إلى حدٍ ما- رائحة الضربون عندما يحاصر.

كان المكان ضيقاً والرائحة بدأت تخنق الحاضرين فتفرقوا من أماكنهم بسرعة، وابتعدوا عن الموقع وهم يسدون أنوفهم، ولو أن الجميع يحتفظون بأجسامهم بروائح أشد منها ضراوة وبربرية.

توقف العم أبو صالح على بعد أمتار وهو يلعن بشدة، ولكن ضغط المصالح جعله يخفف من حدة التوتر مؤقتاً، قال: (غصب عليه يا جماعة والله ما كان يقصد ابن الحرام). اقترب من الحكيم ببطء بعدما تأكد من خلو المكان من تلك الرائحة قال: (اسمع يا شيخ علي، والله ما هنا غيرك يقدر يجيب الكليجاء، أنت أبوها).

رد الحكيم بغنة قال: (وين ألقاها يا عم عبدالله؟).

أجاب العم أبو صالح: (خالتك نورة العلي الظاهر إنها ما تقصر بشيْ).

قال الحكيم: (خالتي نورة العلي ما هي قريبة، خيمتها بالفلاة).

رد أبو صالح قائلاً: (تبي تنهج للشام يا شيخ علي ولا تقدر تاصل خالتك وهي خلف السور بشبرين؟).

قال الحكيم: وهو خائف من هذا الشوم الذي بدأ يتحرك بيد أبي صالح وكأنه أُعدَّ لضربة ما، قال: (أشوف بعد صلاة العصر أروح يمها).

كان الحكيم يقول هذا الكلام ببرود واسترخاء، ولكن كانت عيونه تلخس العصا المخيف، كان الحكيم أيضاً يمارس هذا الهرش المستمر الذي لا يتوقف.

عند هذا الحد شعر أبو صالح بأنه أتم المهمة بنجاح، وشعر أيضاً بحاجته لسويعات من القيلولة التي تريح جسمه، استعداداً للسفر الليلي، وقد أكد للجميع ممارسة القيلولة لأنها تضاعف من الحيوية والنشاط.

قبل الخاتمة بقليل سأل سند الهويري وقال: (أنت قلت يابو صالح إننا مسؤولين عن التمر، والتمر ما هو عندنا).

قال هذا الكلام ورأسه إلى أعلى، وعيناه البارزتان اللتان فقدتا سوادهما وتحولتا إلى ما يشبه البيض تدوران في موقعيهما بسرعة.

رد أبو صالح على تساؤلات سند بعد صمت وتفكير قال: (والله يا سند ما شوف لكم حل إلا بيت طاباش، آخر الليل وقبل ما تجون هنيا أطمروا على بيت الملعون وخذوا حاجتكم، وخاصة إنه ما هو في البيت والبيت خالي من أهله، واسمع يا سند عليكم بالشقراء ولا تأخذون غيرها).

اقتنع سند أو لم يقتنع ما دامت خالته تركية الحبطاء سوف تقوم بغالبية المهمة.

كان عربيد أكثرهم تحمساً لهذه الهجرة لأنه كان يفكر منذ زمن بمغادرة الحفرة، وكان من المعجبين الأوائل بأفكار عبدالله القنار ويتمنى أن يكون مثله.كان يفتخر بمناسبات عديدة ويقلده أحياناً ويهدد به عندما يتعرض لمأزق، كان عربيد الريشاء يمارس بعض الحركات الإرهابية ولكن ضد حماره؛ لأنه لا يستطيع ممارستها مع الآخرين، كان يستعمل الرفس بالقدم الحديدية والعض الفتاك، عندما يخالف الحمار بعض الأوامر الصارمة.

بعض الناس يعتقدون أنه بدأ يتصرف كالحمار بسبب السنين التي قضاها بمصاحبة حماره، هذا الحمار الذي جعل عربيد يعيش بكرامة عن التسول، كانت نفسه زكية وطاهرة لا يحب أولئك الرجال الذين يعيثون في الأرض فساداً ويهاجمهم في جميع المناسبات، ويؤكد دائماً أنهم منافقون حتى الثمالة، ولكنه أدرك أخيراً أن الحفرة لا تحب أحداً ولا ترغب لأحد أن يحبها، وكل ما في الأمر أن تلك الحفرة البعيدة تمارس المصالحة مع الأقوياء وتمارس

الاضطهاد مع الضعفاء، هذه عادة الحفرة التي عاشت من أجلها ومستعدة أن تعيش قروناً عديدة أخرى، ولكن بشروطها التي قامت عليها ولا تسمح للغرباء بالتعدي على هويتها الأزلية.

الحفرة تمتلك محرقة تاريخ أيضاً كغيرها من البلدان الغاشمة التي تتحدى التغيير.

إن العدل والإحسان والصدق والكذب والكراهية والمحبة والتعاطف والإرهاب صفات لا يحق لأحد غيرها تعريفها؛ لأنها تشعر بأن لها الأحقية بالتعريف، ولا يحق للحق أن يعبر عن هويته بحرية، لأن الحرية صفة رديئة يتمتع بها أولئك المثخنون بالجراح النفسية، التي يجب دعوتهم إلى العودة، إن عادوا فبها وإلا قذفوا بتلك المحرقة التي أعدت من أجلهم.

لهذه الأسباب مجتمعة جعلت العم أبا صالح يضحي بعقله ليتسنى له المواجهة بحرية، لأن المجنون مرفوع عنه القلم.

بدأت القصة الحزينة عندما وقف أبو صالح أمام القاضي بسبب دعوى رفعت ضده، تطالبه برفع يده عن بيته الوحيد الذي يملكه، بالرغم من وجود الإثباتات الصريحة التي تعطيه الحق بامتلاكه، لكن كان الخصم أقوى وأشد رهبة، كان لا ينسى ذلك اليوم الذي قُذف بأولاده خارج البيت، حينها قام بتفكيك عقله.

***

بخطط ديناميكية معقدة وتمويهات أعدت سلفاً، استطاع الحكيم الحصول على عشرين قرصاً كانت موضوعة في جانب من جوانب الخيمة، جهزتها خالته نورة العلي، وهي طلبية مستعجلة لأحد الأثرياء، فهم ذلك الحكيم أثناء الحوار الذي حدث بين الخالة وأحد أبنائها عندما رفض إيصالها لصاحبها.

تظاهر الحكيم برغبته في المساعدة، بدأ يعرض خدماته لخالته وأنه على استعداد لإيصالها؛ لأنه يحترم خالته ويرغب برد المعروف عليها؛ لأنها ساعدته بمواقف كثيرة ويندب هذا الحظ السيئ الذي أصاب خالته؛ لأنها لم تنجب أبناءً صالحين يقومون بخدمتها.

نجحت المحاولة وحصل على الأقراص العشرين، قال: (جابها الله سهلة وسهلة بالحيل وراعيها خله ياكل تراب). وصل الحكيم إلى الأصدقاء وقد أتم مهمته بنجاح.

لما علم أبو صالح وشاهد هذا قام من مكانه وبدأ يرقص ويغني ويلعب بالعصا، ثم ترك العصا وبدأ يطلق فرقعات من أصابعه رافعاً القدم الحديدية، هذا وقد توج الفرحة بقبلة جادة فوق أنف الحكيم ثم قال: (أرسل حكيماً ولا توحيه) بعض الناس لا يعلمون كيف أتى أبو صالح بهذا المثل، بدأ الحكيم بهذه المهمة وكأنه أعقل الناس وأحرصهم على تنفيذ المهمات الصعبة، وخاصة أنها بهذه الظروف المناخية السيئة، كما أن أبا صالح عندما رأى تخطيطاته وهي تنجح واحدة بعد الأخرى، عبر عن هذه الفرحة بتلك الرقصات التي تبوح عن أهدافها.

كل هذه الأشياء كانت تطرح علامات استفهامية كثيرة.

كيف يستطيع هؤلاء المجانين أن يستعيدوا عقولهم ويستعملونها عندما يريدون ذلك؟ أليس الأولى بهم استعمال تلك العقول في شؤون الحياة المستمرة، واتخاذ أحد المواقع الراشدة، والتواصل مع الآخرين حتى نهاية الحياة بدون معاناة؟

لماذا يضحكون بسعادة عندما يقومون بتغييب عقولهم عن الناس؟ كلها أسئلة تدل دلالة واضحة على صعوبة الإرهاب، عندما يتخذه الناس شعاراً بتاراً لصد الهجمات التي تتسلل على حين غرة، وتحاول فضح التاريخ وتعري هذا الحق المزوَّر الذي تمتلكه الحفرة، وتمارس ما يعتريها من تعال وحجرية صحراوية مخاتلة، تتميز بالغباء القهري الذي حبلت به، وأصبح وليداً من مواليدها يتداوله الجميع بأعجوبة.

لهذا قرر أبو صالح وقرر الحكيم وقرر رجال كثر أن يسحبوا عقولهم من تلك الأجواء الغابرة خوفاً عليها من الضياع.

الفصل الثامن

اليوم الثامن والعشرون تميز بأحداث جديدة برزت على الساحة لأول مرة، أهمها توقف الأمطار، وكان ذلك في وقت متأخر من الليل، أعقبها ضباب كثيف استمر حتى ساعة متأخرة من الصباح.

الحدث الثاني: وصول سيارتين جديدتين من نوع (فورد بكب) مع سائقيهما، الأولى اتجهت إلى مخيم طاباش وتوقفت هناك، أما الثانية فإنها وصلت إلى قصر المنصور وتوقفت تحت السور الطويل، يقول الناس: (إن هاتين السيارتين وصلتا خصيصاً لطاباش والبعيرصي، وكان أحد المتتبعين للأخبار وصل إلى قناعة تامة بأنهما اشتريا السيارتين قبل شهر)،كان يقول هذا الكلام في ساحة كبيرة أمام المخيمات التي تجمع فيها الناس لمعرفة هذا الحدث العظيم، كان هذا في وقت العصر بعدما حصل الناس على أكثر المعلومات، أحد المهتمين قال للجمع: (هذولي سيارات العمومة طاباش والبعيرصي شروهن قبل شهر والأمطار أخرت وصولهن للحفرة).

ولكن هناك من يؤكد أن هاتين السيارتين هديتان من أوساط عليا رأت أن الأمر يحتاج إلى ذلك.

الحدث الثالث والأهم في الحفرة، اختفاء الطيور المهاجرة عندما بدأ البحث عنها والنداءات المتفرقة بين الخيام، كان أولياؤهم يبحثون عنها في كل ناحية، وكل يبحث عن صاحبه، ولكن لم يتأكدوا بعد من وجود علاقة تربط الملابسات مع بعضها.

أصبحت الحفرة تغلي هذا اليوم من شدة الأحداث التي حصلت، وكل العاطلين عن العمل وناشري الأخبار وجدوا عملاً حاسماً يشتغلون به.

قبل ظهر هذا اليوم اقتنع الجميع بأن وراء الاختفاء سبباً محيراً اشترك به الجميع.

القليل من الناس يشكون بسقوط جداراً من جدران الحفرة عليهم، ويطلبون من الحاضرين التبرع باقتحام البلدة والبحث عنهم تحت الأنقاض، بعض الذين يربطون الأحداث مع بعضها يخمنون وجود علاقة بين هاتين السيارتين واختفائهم، فربما دهستهم واحدة منها ودفنوا تحت طعس من تلك الطعوس الرملية، ولهذا يطلبون من الناس تتبع سكة السيارتين لعلهم يعثرون على دليل.

حميد الأصمخ يشك بالسائق الأسمر الذي يقود سيارة طاباش، ويبرر هذا بعيون السائق المحمرتين وتلك النظرات المشبوهة التي تؤكد أنه ذبح رجالاً.

أبو شينان يراهن على تلك الآثار التي عثر عليها تدخل الحفرة من بابها الغربي، ويقدر الوقت الذي دخلت فيه بأنه أثناء توقف الأمطار؛ لأن الآثار اختفى أجزاء منها.

كان يقول بحماس: إن هذه الآثار أكبر من آثار كلب، وإنها لحيوانات غريبة بحجم الحمار، ويشك بأنها آثار "مسارة"، يقول: (الله العالم يا ناس إنها مسارة والمسارة مثل ما تعرفون تاكل الرجّال كامل وهي تمسر الجوف مسر وتحب أكل الأحشاء).

وقال أيضاً بعد برهة صمت: (والمسارة نوع من أنواع الذئاب بس أكبر من الذيب لها زقم طويل وأصغر من الحمار شوي).

اقتنع بعض الرجال بهذا التحليل، وخاصة عندما كانت الأبقار والأغنام مضطربة ليلة البارحة.

قال ابن سعيدان: (البقرة يا جماعة الخير طول الليل وهي تثغي وما خلتنا ننام).

وقال صياح: (النياق تحن طول الليل).

ومادامت الآراء تطرح بهذا الشكل الأيديولوجي، فلا بد أن تطرح مضاوي أم خشمان رأيها وتثير الريبة على أعدائها التقليديين، عندما ذكرت أن هناك يداً خفية معادية لعبت دوراً بهذا الاختفاء المفاجئ، وأن السلعوة شماء السماوي وزوجها خسارة ليسا بعيدين عن التهمة، وتؤكد بقوة أن هذه العائلة المشؤومة التي تأكل لحوم البشر قد استولت عليهم بعد أن احتاجت للأكل، وما كان لديهم شيء يأكلونه، لذلك فإنهم وقعوا فريسة لهذين الشريرين.

بدأ البحث الجاد على عدة جبهات، بعض الشباب المغامر تجاذبوا المساحي وحملوها على أكتافهم وهم يتنافسون على المغامرة وشدة البأس، وقاموا بدخول البلدة عنوة لعلهم يعثرون على خبر.

أما أبو شينان فإنه أخذ معه ثلة من الموهوبين المجربين بمقارنة الآثار، ليؤكد للجميع صحة ما ذكره، ولكنهم عادوا وهم يضحكون من سذاجة هذا الرجل، عندما ذكروا للناس أنها آثار بقرة لم تُحْذَ أظلافها.

حميد الأصمخ الخبير الجيد بشؤون الأثر قال بسخرية: (أبو شينان داوي والله أنه ما يعرف مطقع النعجة).

مضاوي قامت بجولات استخباراتية ناجحة عندما اكتشفت أن المتهمين غادروا الحفرة وسكنوا بالكهوف الشمالية، وقد بذلت جهوداً كبيرة عندما بثت الجواسيس الصغار

والمعوقين فكرياَ، وأغرتهم بقطع من حلوى "الملبس" و"البرميت" لعلها تقتنص خبراَ يؤدي إلى تورطهم في القضية.

أعلنت مضاوي بعد العصر وفي وسط الساحة القريبة من المخيم وعلى الملأ، أن (السعالوا) اختفوا أيضاً من الحفرة، وأكدت لأهالي البلدة أن ضحاياهم في جوف شما السماوي وزوجها خسارة.

صعق الجميع لهذا الخبر السيئ وقد توقف البحث نهائياً لتدارس إمكانية هذا الخبر، عندها بدأت المراهنات والنـزاعات ومصادرة الأفكار والاشتباكات الخفيفة التي أدت في النهاية إلى قطع علاقات كثيرة، وفضح بعض الأسرار عن علاقة ما تربط بعض الموجودين بشما السماوي، ونتج عن هذا عشرات القضايا التي اشتعلت ناراً، وأبعدت المجتمعين عن القضية الحقيقية.

بعض العقلاء حاول لملمة الجهود وتناسي الخلافات الشخصية؛ لأن الليل قادم والوضع يحتاج إلى عمل جدي يؤدي في نهاية المطاف، إلى برنامج عمل ناجح، والعثور مبكراً على هؤلاء المجانين المفقودين.

انتهى بهم الأمر إلى عرض القضية على مساعد الأمير "صحن بن شمروخ" وطلب المساعدة لأن الكهوف الشمالية بعيدة جداً، وتقع خلف الوادي الملتف الذي يزمجر غضباً في هذا الوقت بعد الأمطار الكثيرة التي هطلت، ثم إن الحكومة تمتلك سلاحاً ورجالاً قادرين على المداهمة إذا تطلب الأمر ذلك.

ناصر القطوة، هذا الشيخ الكبير الذي لعب دوراً مهماً في الأحداث السابقة، ترشح لرئاسة الوفد الذي سيجتمع مع ابن شمروخ، هذا المساعد الذي يجلس دائماً بصدر المجلس الكبير ينتظر قضية سوف تأتي في يوم ما، وها هي تلك القضية التي تطرق عليه الباب بدون مقدمات، قال صحن بعدما شرب الجميع الفنجان الثالث: (هاه يا جماعة الخير وش جابكم).

رد ناصر القطوة قائلاً: (جينا للسلام طال عمرك أوودنا نعلمك أن هناك بعض المجانين فقدناهم اليوم ونبي مساعدتكم طال عمرك).

رد ابن شمروخ قائلاً: (ياهلا والله وسهلا وأبشروا بالزين، بس وش تبغوننا نسوي، آمروا وحنا تحت الطلب).

عندما ذكر ناصر القطوة الاحتمالات التي يشكون فيها، والتي سببت اختفاء المجانين الخمسة، التفت صحن وهو يلعب بشاربه ويحث أفكاره على الاستجابة وقال: (أما إنها

مسارة فهي مسارة، المسارة أعرفها زين ملعونة وسبق أننا صدنا منها في القنص، تاكل الرجّال وتتبعه ثاني).

(أما إن كان خسارة ومرته سعالوا وياكلون الناس، فهذا يمكن ولا أقدر أنفي، ورجالنا يبون يقطعون الشك باليقين، وأبو عربود رجّال شجاع ويقص الأثر زين).

صاح ابن شمروخ على الخوياء وطلب حضور أبي عربود.

حضر أبو عربود على وجه السرعة ووقف أمام الجميع.

قال صحن: (اسمع يابو عربود: خذ معك ثلاثة من رجالنا ومعكم بواريدكم وسيوفكم وانحروا الكهف الشمالي، ولا تغيب شمس اليوم إلا والخبر عندي). أضاف قائلاً: (وشوفوا الأثر وأنتم بالطريق).

بادر أبو عربود في تنفيذ الأوامر على مضض، وأخذ الرجال وهم مدججون بالسلاح، ولولا تلك الأوامر الشرسة لتوارى عن الأنظار.

ما كان يبحث عنه أبو عربود حالة شاذة ومخيفة، وتدعو إلى الحذر الشديد، قال أبو عربود للرجال وهو يرتجف من الخوف: (خلوكم جاهزين وسلاحكم زهبوه بالفشق).

في بداية الطريق إلى المجهول عثر أبو عربود على أثر أقدام كثيرة متجهة إلى ضفة الوادي، وعرف أبو عربود أنها آثار أقدام لأناس مجانين، لأن الطريقة التي يسيرون بها تدل على ذلك، وعرف أيضاً أن هناك امرأة تسير معهم، وعرف أيضاً أن هناك قدماً حديدية تغوص في التراب.

بدأ أبو عربود ورجاله يسيرون خلف تلك الأقدام يلملمون شملها المتفرق، ولكن لماذا بعض الأثر يقفل راجعاً لمسافات ثم يعود بعدها؟، كلما مرت فترة من الزمن يلتفت للرجال ويكرر عليهم مقولته: (خلوكم جاهزين).

توقف قليلاً، نظر إلى الأمام، وضع كفه الأيمن فوق حاجبيه، ركز بصره قليلاً لعله يشاهد بارقة أمل، طلب من الرجال أن يتأكدوا من سلاحهم مرة أخرى، حرك شاربه من الجانبين، سمع صوتاً صغيراً قادماً من الجانب الأيسر، اهتز وتراجع ورفع سلاحه وكاد يسقط منه، عرف أنه صوت ابن آوى، حاول استعادة جأشه، نظر إلى الرجال ليتأكد أنهم لم يشعروا بما فعل، وأخيراً واصل المسيرة خلف الأثر.

أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما فؤجئ بالأثر وهو يقتحم الوادي إلى الضفة الأخرى.

التفت إلى الرجال وقال: (اقطعوا إيديَّ الثنتين إن ما كان الوادي بلعهم قبل ما تبلعهم شما السماوي). كانت حجة شيطانية ألهم بها قبل اقتحام الوادي والاتجاه إلى المصير المجهول، كانت كافية لإقناع ابن شمروخ بها، ودليلاً لابأس به على النجاح.

قال وهو يوهم الرجال: (الله يرحمهم برحمته ويساعد أهلهم على الصبر والسلوان).

في هذه اللحظة الصعبة والجميع يستعدون لاتخاذ القرار الحاسم، والمساء الضعيف يرسم صورة حزينة على ضفاف الوادي، تراءى لهم شخص قادم من بعيد وهو يسير على الضفة التي يوجدون بها، كان هذا الشخص يحمل زنبيلاً فوق رأسه، وكاد الزنبيل أن يغطي وجهه بالكامل، لأن الرأس أصبح في وسط الزنبيل، هذا الرجل الذي يسير لا يرى شيئاً سوى ما بين قدميه، كانت مشيته تشبه مشية الأوزة وقد لف على قدميه قطعاً من القماش، دليلاً على طول المسافة التي قطعها ذهاباً وإياباً، كان يمشي بغير هدى، تجاوزهم وهو لايعلم بهم، كان يغني وهم ساكتون يتحسسون أخباره، كان يغني بعض الأناشيد الوطنية التي يغنّيها الصغار:

(أرنب نطت.... من بين ثنتين.... عدها وتلقاه.... عشر وثنتين.... أرنب نطت.... من بين ثنتين....).

عرف الجميع أنه الحكيم علي الأزرق، ولكن أين البقية؟، كأن حظاً نزل من السماء ومفاجأة كبيرة ومستقبلاً زاهراً بالنسبة لأبي عربود، كاد أن يزغرد من شدة الفرح والدموع تنهال من عينيه.

صاح على الرجال: (امسكوه.. امسكوه عليهم.. عليهم). تراكض الرجال وأمسكوا به، أطلق أبو عربود عدة طلقات من بندقيته في الهواء ابتهاجاً بالانتصار.

في أول سؤال وجهه أبو عربود، اعترف الحكيم أنه مفصول ومطرود من الجماعة قبل أن يتجاوز ضفة الوادي لأنه أكل معظم الأقراص.

سأل أبو عربود ثانية قال: (وين باقي ربعك يا علي؟).

أجاب قائلاً: (سندوا يم الشام).

اندهش من هذه الإجابة المبهمة وقال: (وين حنا وين الشام؟).

أُقتِيد الحكيم إلى مقر الإمارة، وأبو عربود كان معجباً بهذا الانتصار العظيم عندما عثر على شريدة القوم، كانت تكفيه وتعفيه من العقاب، حاول بكل قوة أن يعض عليها بالنواجذ،

ويقدمها على طبق من فضة إلى رئيسه الذي كلفه بالمهمة، ويثبت بالدليل القاطع أنه نجح في هذا الأمر الشاق.

بدا أبو عربود وكأنه ديك رومي عندما أراد أن يلقي على الرجال محاضرة بالمقدرة قال: (الرجل العاقل لازم يعرف وش يريد).

بدأ الحكيم يرتعش من الخوف والمصير المجهول وهو في أيدي الرجال، حاول أن يفكر ويدرك ماذا فعل، ولكن لا يستطيع أن يعلم بالتمام ماذا يريد الناس منه، ألم يكن هناك مفقودون؟، ألم يكن الحكيم جزءاً منهم؟ لا بد من المساءلة عن مصيرهم.

حاول الحكيم أن يبعد التهمة عنه بالتمويه والمخاتلة لينجو بنفسه، عندما سأل الرجال قائلاً: (خالتي نورة العلي فيها شيء؟).

أجابه أبو عربود إجابة تدل على مسايرة الوضع النفسي للحكيم حتى يتم التسليم قال: (إيه.. خالتك المسكينة إدورك وهي هالحين ما ينعرف وش جرى لها).

سأل الحكيم مرة أخرى وقال: (وهي هالحين وينهي؟).

رد أبو عربود: (في حوش الإمارة وساعة ما نصل تعذر منها وحب يدها).

***

ارتكب أبو صالح خطأً فادحاً عندما وافق على رغبة الحكيم في حمل الأقراص، وارتكب خطأً آخر عندما تركه يمشي خلفهم بمسافات كبيرة، كان من المفروض أن يجعل الحكيم في وسطهم حيث يستطيع أن يرصد الأقراص عن قرب عندما بدأت الرحلة، وكان هذا في الساعات الأولى من الفجر، بذل الجميع محاولات شاقة في بدايتها، الأرض موغلة في الرطوبة والضباب الكثيف لا يساعد على قطع المسافات، حاول أبو صالح تحديد الاتجاه بدقة وحماس، لذلك شدد على الجميع أن يجعلوا الهواء القادم من الشمال الغربي على الجانب الأيمن، قال (شدوا حيلكم وخلوا النسري على حجاجكم الأيمن واتبعون).

كان الحكيم يتعمد تقصير خطواته ليجعل هناك مسافة مناسبة بينه وبينهم ليخلو بتلك الأقراص.

صاح عليه أبو صالح عدة مرات بحث السير، ولكن كان يتعذر بثقل جسمه وأن بطنه البارز لا يجعله ينظر إلى ما تحت قدميه، وإن حاول أكثر فإنه سيسقط.

قبل أبو صالح تلك الأعذار الواهية معبراً عن ديمقراطيته الجادة وروعة القيادة، وأنه حريص كل الحرص على سلامة الفريق، لأن القائد يجب أن يتمتع بالصبر ويعرف روح القيادة، أما التهديد بالعصا فإنه فيما بعد عندما تنتصف المسافة خوفاً من الفشل والعودة.

لما انفرجت الأوضاع وخف الضباب بدأت المسيرة تتخذ شكلاً متزناً، ورأى القائد أنها مناسبة سليمة لعرض الذكريات، وشرح الملابسات الحقيقية التي تشوب شخصيته وإظهار القوة الكامنة، إن ما فعله أبو صالح يشبه -إلى حد ما- ما تفعله الذكور الحيوانية عندما ترغب بالسيادة.

شرح للجميع وبطريقة عملية أساليب المشية العسكرية التي كان يمارسها بالعمل في الزمن الماضي، عندما كان شاباً متحمساً للحرب. في مرات كثيرة يطلب منهم التوقف لمشاهدة أصعب مشهد استعراضي، ولكن دخول العصا مرة تحت قدميه وسقوطه على الأرض، جعل الجميع يضحكون عليه وخاصة تركية الحبطاء، تأثر أبو صالح من هذا السقوط المفاجئ، وتعلل بأعذار كان من أهمها رطوبة الأرض، وهذا الطين الذي حمله نعلاه وأتى على عينيه ووجهه، وشدة الضرب الحديدي الذي تفعله أقدامه، ثم هذا الحكيم الذي لم يصل بعد ويشاهد الاستعراض، كل هذه الأشياء جعلت أبا صالح يخرج عن طوره ويهاجم الحكيم بعدة ضربات في مؤخرته بتلك القدم الحديدية، قال الحكيم: (خلك راجل يابو صالح خلك راجل وابعد عن المحرمات).

الجميع اقتنعوا أو لم يقتنعوا، المهم في الأمر أنه مارس دور المعلم والقائد المستبد، والإرهابي المتمرس في مصادرة واستلاب الشخصية.

عندما يشاهد الحكيم في بعض المرات أن الفريق توقف لأمر ما، أو مشاهدة بعض المشيات العسكرية الخطيرة، عندما يشاهدهم كذلك، فإنه يتوقف هو أيضاً ليجعل هناك مسافة كافية بينه وبينهم؛ خوفاً من اكتشاف أمره ومعرفة النقص الحاد الذي بدأ يتفشى بين الأقراص، كان الحكيم قد أحدث فجوة في الزنبيل الكبير الذي وضع به الأقراص وهو يحمله فوق رأسه، كانت هذه الفجوة تتسع لإدخال يده وجذب قرص ثم مزاولة القضم حتى ينتهي، بعدها يجذب قرصاً آخر وهكذا على طول المسافة القصيرة التي قطعوها.

الحكيم غير مؤمن بهذه الرحلة وكان يدرك مصيرها المحتوم لأنه يعرف أن المسافة طويلة ولا يمكن لهؤلاء قطعها، وكان يعرف أنها ليست أهدافاً حقيقية، وكل ما في الأمر شطحات عقلية مجنونة ينتهي دورها في نهاية النهار.

كانت تظهر هذه الأشياء عندما سأله صحن بن شمروخ عن سبب انضمامه ومشاركته بتلك الأقراص.

أجاب قائلاً: (أبد والله يا طويل العمر فراغ وقلة شغل وأبو صالح صديق عزيز علينا).

وأجاب عن ملابسات طرده، قال: (يوم وصلنا طرف الوادي ريحنا شوي، وطلب أبو صالح مني الأقراص ولكن ما بقي منها غير ثلاثة، زعل وضربني بالشوم وقال: توكل على الله ارجع لأهلك أنت مفصول ومطرود).

هل كانت الرحلة للجميع تعبيراً عن قلة الشغل والفراغ أم تعني شيئاً آخر بالنسبة لهم؟ ما يجعل الحكيم يختلف عنهم أنه سعيد بكل مكان وبأي مناسبة، كان الحكيم يدرك سياسة الصحراء بالفطرة، وكان يدرك أن الصحراء يجب عليها أن تستمر صحراء، وأن المعادلة الأساسية فيها (يا ظالم يا مظلوم). وإذا قامت الصحراء بتجربة العدالة، فإنها تنفسخ عن لونها وتتخذ شعاراً جديداً لا يلائم ملامحها، عندها سوف تسقط وتكتسي ألواناً من تلك الألوان الرديئة الرطبة التي تتميز بها بلاد الأنهار، وتفوح منها روائح سمكية تجبر الضب والجمل على المغادرة، لذلك استطاع الحكيم أن يجعل أيامه سعيدة دائماً.

عندما أراد الحكيم أن يعود خلق عذر العودة، ولو أنه أكل ضرباً على المؤخرة وبين الأكتاف وواحدة على البطن، ثم رفسةً شديدة على المؤخرة بتلك القدم الحديدية، لما نهض الحكيم قال: (الله يلعنكم ويلعن هجرة معكم).

صاح عليه أبو صالح قائلاً: (ارجع لخالك يالملعون منتب كفو شام).

كانت المسافة المقطوعة قصيرة جداً، ولو أنها تأخرت أربع ساعات بسبب تلك البروفات الصارمة عن قضايا المشيات العسكرية، التي يجب على الجميع تعلمها لأنها من الواجبات القومية التي تحمي الحفرة من الغارات الصحراوية المفاجئة.

اكتفى الجميع بالأقراص الثلاثة الباقية التي جعلت سند الهويري يلعن الحكيم باستمرار؛ لأن تلك الأقراص من الأسباب المهمة التي جعلته يوافق على هذه الرحلة، وكما قال: (رحلة بدون اكليجا ما تساوي شي).

عندما انتهى الفريق من الراحة بدأت محاولات العبور إلى الضفة الأخرى من الوادي، عبر أبو صالح عبوراً استكشافياً ثم عاد، وطلب من عربيد العبور وهو ممسك بحبل الحمار، أما سند فهو خلف الحمار ممسك ذيله، تركية الحبطاء هي الهم الوحيد، حاول أبو صالح أن يقوم بمساعدتها شخصياً خوفاً عليها من الغرق.

في نهاية النهار ووصول الليل وبعد المراوحة والجيئة وتغيير الطريق والاتجاه عدة مرات، وتغيير المشيات العسكرية مرات عديدة وبأشكال متعددة، وصلوا إلى ضاحية من الضواحي القريبة للحفرة، وكان القدر يعمل لصالحهم.

تأكد لهم بما لا يدع مجالاً للشك أنهم وصلوا إلى مشارف الشام، ولكن شام المجانين!.

عرف الناس بالرحلة وبدؤوا يشتغلون عليها، عبر صياح عن موقفه عندما قال:

(حتى المجانين هجت)، وقال دمعان: (لا بد ما يقيدون بالحديد).

أما المدركون لحقيقة الأوضاع، وخاصة عبدالله الحمود فقد ذكر: (أن الأوضاع وصلت إلى حد جعل أنصاف العقول تعبر عن وجهة نظرها).

أما أحمد العبد ربه الذي تربطه صلة قربى بالحكيم، فإنه عبر عن رأيه بكل صراحة عندما قال: (إنكم إرهابيون وتحرضون الإرهاب على مضاعفة جهوده، ولا أستبعد أن يأتي الغد وهو يحمل في بطونكم متفجرات نووية، تقوم بالنيابة عنكم برسم الهوية الوطنية أمام المجتمع الدولي).

ومخلب الشنان قال: (اذبحوا أبا صالح لأنه يغري العويرا والزويراء والضعيفة من أواخر الرعية).

كانت هذه الأحداث تعمل على أشدها، والجازية أم دوشان تستعد لمغادرة الحفرة بلا رجعة، وهي تحمل جراحها وتلعن التربة التي غذت هذه الأشكال الشيطانية.

في طريق العودة إلى ديار القبيلة واجهت قطيعاً من الكلاب الضالة وهي تتحرش بهم، فوجئوا بوجود نزهان معها، وكان أشد الكلاب ثورة وكأنه لا يعرفهم، صاحت الجازية بأعلى صوتها وهي تناديه: (نزهان... نزهان... بطح... بطح) ضاعف نزهان ثورته وكاد أن يفتك بها ولكن ابن العم شاهد دموعاً على خد نزهان. قبل أن يتركهم ويغادر بصحبة الكلاب، توقف والتفت إليهم ونبح عدة مرات ثم غادر الموقع وتوارى تماماً.

تألم الجميع وبكت الجازية بكاءً شديداً وهي تمشي بالطريق، وتعد فضائل هذا الحيوان الوفي، وأخيراً قامت تحن كما تحن الإبل على فقد حقانها.

***

الفصل التاسع

في اليوم التاسع والعشرين كانت الأمطار على شكل موجات متقطعة وعلى مسافة من الزمن.

افتتح أهالي الحفرة بواكير هذا اليوم على إعلان كان مثبتاً على باب الجامع الكبير، كان يقول: (إن السلطات وافقت على فتح مدرسة للبنات وتبحث عن مبنى صالح لهذا الأمر). اختلف الناس في تفسير هذا الخبر، أكثر الناس يعتقد بأن المقصود مدرسة بنين وأن الكاتب أخطأ، بدؤوا يضحكون من هذه النكتة ويتندرون بها، بعض الناس يضحكون بشدة عندما يتصورون أن البنات لهن مدارس أيضاً، أما البعض الآخر والمتشائمون منهم فإنهم يرصدون الخبر بحذر، وأن المقصود مدرسة بنات وليس مدرسة بنين كما يظن البعض.

المدركون والمتعلمون فهموا هذا الإعلان كما هو، وهم يتصورون المعركة الجدلية القادمة، ويدركون تمام الإدراك ماذا ستكون عليه الأوضاع في الزمن القادم؟

لما عرف الجميع أن الإعلان صادق وكما هو مكتوب في الورقة، بدأت الاستعدادات لخوض معركة.

ظهر على السطح المعارض الكبير (حامد القرطاس) وهو يعلن على الملأ أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الناس جميعهم في النار إذا وافقوا على عمل الكفار.

كانت هذه المرة شديدة عندما انضم البعيرصي وطاباش للمعارضة؛ لأن مثل هذه الأشياء تمس مباشرة بثوابت الحفرة، ولا بد من الثورة مع الجماعة لذرِّ الرماد في العيون، كانوا يأملون أن هناك خطأ في صيغة هذا الإعلان، لذلك يجب التوجه إلى السلطان والتعبير مباشرة عن رغبتهم في إلغاء هذا الأمر.

هذا الحدث العظيم الاختراقي أدى إلى تبرع البعيرصي وطاباش بسيارتيهما لحمل الناس الذين يرغبون بمواجهة السلطان.

كان حامد القرطاس يروي للناس الموجودين حوله رؤيا رآها ليلة البارحة، عندما شاهد في المنام ثعباناً كبيراً يُخرِج من فمه لهباً وهو يسعى بطرقات الحفرة ويلتهم كل ما يقابله.

أصبحت هذه الرؤيا حافزاً قوياً لدعم المعارضة؛ لعل وعسى أن الأمور تنتهي على خير، ويتم إغلاق المدرسة بلا رجعة.

في المساء وبين المخيمات راج خبر مفاده: (أن الأستاذ عبدالله الحمود "كافر" ويجب قتله لأنه من الذين سعوا لفتح مدرسة، هذه الفتوى الإرهابية أفتى بها حامد القرطاس، وأفتى أيضاً بأن الذين يضمون بناتهم لهذه المدرسة آثمون).

نامت الحفرة هذه الليلة وهي تغلي في أمل يوم قادم يشع بالحرارة، بعض المحايدين يرون أنها أوامر دولة، وأن الدولة تسعى للصالح العام، ومن لا يريد ضم ابنته فهو حر ولا داعي لهذه الضجة، وأن الواجب الحقيقي على هؤلاء الذين يثيرون القضايا أن يتوجّهوا إلى ربهم لإيقاف هذه السيول الخطيرة، التي دمرت الممتلكات والناس وأن هذا الأمر أولى لهم.

الفصل العاشر

في صبيحة الثلاثين من الوسم، توجه الوفد المعارض إلى مقر السلطان، الكثير من الذين ذهبوا كانوا لأجل الولائم الدسمة التي تقدم أثناء الرحلة.

في الطريق اكتشف الناس أن الحكيم يرافقهم، كان يضع اللثام على وجهه ويتوارى عن عيون الناس خوفاً من اكتشاف أمره.

قال الحكيم عندما عرفه المرافقون وعندما سُئل عن سبب وجوده: (على شان اللحم والرز)، كان يقول هذا الكلام بصوت أغن.

أحد الرجال استشاط غضباً وكاد أن يقذف به والسيارة تسير، ولكن توسط له أحد الرجال بشرط أن يقتصر دوره على الأكل، ولا يصاحب الناس إلى السلطان، وعندما يصلون إلى هناك يجب عليه أن ينتظر في صندوق السيارة ولا ينـزل منها.

كان الطريق صعباً للغاية والأودية دائمة الجريان والسيارات تغوص في الوحل، ولكن كثرة الرجال ساعدت على إخراج السيارة من تلك العوائق المشبعة بالرطوبة، عندما تغوص سيارة في تلك السكك المعوجة يتفازع الرجال جميعهم في إنقاذها، ما عدا الحكيم الذي يجلس في الوسط ولا يستطيع النـزول منها لأنه أصيب بدوار طيلة المسافة، وأصيب بما يشبه النوم والاستفراغ أحياناً. كان يشاركه في ذلك بعض الرجال الذين لم يتعودوا على ركوب السيارات.

ذكر الحكيم أنه أول مرة يركب سيارة، وأن الجمل أفضل منها بكثير، وقد قطع المسافة إلى الكويت على ظهر جمل وأحياناً يمشي على أقدامه، كان هذا قبل عشرين سنة عندما كان شاباً.

لم ينتبه الحكيم لهذا الرجل الجالس في زاوية الصندوق، لأنه من المسافرين معه في ذلك الزمن، عندما بدأ هذا الرجل بتصحيح أقوال الحكيم، قال الرجل: (أنت كذاب يا علي ما كنت تمشي على رجليك ولا ركبت الجمل لوحدك، كنت موضوع في كواجة الجمل ومربوط بالحبال). فوجئ الحكيم بهذا الشاهد، مما جعله يلغي ذكرياته ويقرأ سورة من القرآن بهذا الصوت الساحر الذي خشع له الجميع.

على ضفة وادٍ جميل توقفت القافلة، وبدأ السعي الحثيث لتجهيز وجبة الغداء وصنع القهوة والشاي.

كانت فرصة لهؤلاء الذين يريدون دهن بطونهم بعد طول انتظار، وخاصة أن هذه الوجبات الدسمة كانت هدفهم الوحيد المظلل بالمعارضة، كل اللحوم والأرز تبرع بها البعيرصي بكامل مستلزماتها.

حامد القرطاس الذي رفض مرافقة الرحلة لأنه لا يريد أن يركب سيارة، قضى حياته وهو يمشي على أقدامه ويدعي أن السيارة بدعة من عمل الشيطان، اكتفى بالدروس التي يلقيها بعد صلاة الفجر عن جميع البدع والمدارس الحديثة.

أثناء التفاعلات التي تحدث للحفرة هذه الأيام، كانت الإجراءات تتخذ على قدم وساق لتنفيذ الأوامر وفتح المدرسة بأسرع وقت، كانت هناك لجنة يترأسها عبدالله الحمود وصحن بن شمروخ.

***

ما أصعب البناء الداخلي عندما تنتهي حروب التوحيد!، كان السلطان يكرر تلك المقولة دائماً وكان يقول: انتهت الحرب الصغيرة وبدأت الحرب الكبيرة.

استطاع عبدالله الحمود أن يشرح للجنة الأهداف الحقيقية للدولة، وأن المدرسة ستفتح مهما كانت النتائج وأن السلطان لن يلغي هذا الأمر، كان يشرح هذه الأهداف عندما رأى أن اللجنة تريد بعض الوقت لمراقبة الوضع قبل أن تبدأ بعملها، وقال أيضاً: (إن الناس لم يعتادوا على الأشياء الجديدة، وإن المسألة مسألة وقت فقط بعدها يعتاد الجميع، وإن الحفرة بلدة مشاغبة، وإنها تعرب عن أحزانها بتلك اللغة الاستفزازية الحادة التي تجعل الجميع يشمئزون منها).

***

(التعليم هدف ومطلب قومي للولد والبنت، ولا تنهض الأمم إلا به، وأنا أعرف أنني سأدخل حرباً شرسة، أقوى وأشد على قلبي من جميع الحروب التي خضتها وخاضها أهلي من قبلي، ويؤسفني كل الأسف وأنا أبلغكم رفضي التام لهذا المطلب، على أنني لم أرفض لكم مطلباً في حياتي، أنتم شعبي وأنتم الهدف، وأنتم كل شيء في حياتي، حربي لكم وجهدي من أجلكم، وأحب أن أراكم وأنتم أقوى الأمم، ولا يتم هذا إلا بالتعليم، ودَّعنا الحرب

الصغرى واليوم نبدأ بالحرب الكبرى، وأنا سائر في هذا الطريق، وأنا عاقد العزم، وأنتم ورغبتكم إن أعجبكم هذا فبها، أو اختاروا لكم مكاناً غير الحفرة تسكنون فيه).

كلمة السلطان عندما قالها لرجال الحفرة عصر الثلاثين من الوسم، اقتنع بها الحاضرون وعرفوا أنهم على غير هدى، وأن هناك أشياء لا بد منها.

بعد الحفاوة والتكريم وتناول مائدة السلطان، بدأت العودة إلى الحفرة، وقد رافقهم السلطان حتى سياراتهم مودَّعين بالحفاوة.

كان الحكيم ينتظر في صندوق السيارة، استطاع أن يبدد لحظات الانتظار بترتيل القرآن، جذب هذا الصوت الجميل بعض المارة ووقفوا ليستمعوا إليه.

عندما جاء الوفد وسارت القافلة، سأل الحكيم أحد الرجال عن آخر التطورات، ولما سمع الإجابة قال: (طقعة عريان طار بها الهواء).

سمع أحد الرجال الغلاظ هذا القول، طلب من الحكيم إعادته لأنه لم يسمعه جيداً، غيَّر الحكيم المثل بمثل آخر قال: (ولله في خلقه شؤون يا أستاذ). كاد الرجل يلقي به من السيارة لولا رجل آخر وضع يده حماية للحكيم.

الفصل الحادي عشر

في اليوم الحادي والثلاثين من الوسم، كانت تشاهد السماء وهي تحمل قطعاً بنية من السحب تلتئم مرة، وتسقط أمطار خفيفة وتتفرق مرة أخرى، وتبدأ الشمس إرسال أشعتها الذهبية التي عملت على تجفيف المكان.

الناس المحايدون يدعون الله أن يرحم ضعفهم ويزيح عنهم هذا البلاء الذي حاق بهم، تشتت الناس، وتوقفت الأعمال وقل الرزق، وتضررت الأنعام، وبات الناس يتسولون في الطرقات.

في هذا اليوم وصل الوفد المعارض إلى بلد المنشأ إلى الحفرة التي تنتظر أن تسمع شيئاً، كان الناس ينتظرون على رؤوس الطعوس وعند السكك العامة، ويسألون القادمين من هناك: هل شاهدوا وفداً ما؟ كان هذا السؤال أول سؤال يطرح على الغرباء، ثم الأسئلة الأخرى عن الأمطار ومدى تأثيرها على النواحي البعيدة، وعن وجهة القدوم ووجهة المغادرة أيضاً، وأحياناً كثيرة يسألون عن الفقع (الكمأة) و(الأقط) وعن توقعاتهم المستقبلية لأسعارها.

كان الوفد صامتاً ولا أحد يجيب عن الأسئلة الكثيرة التي يسألها الناس عن نتائج المحادثات مع السلطان.

المعارض الكبير حامد القرطاس على رأس المستقبلين، كان يلبس نصف عباءته والنصف الآخر يُسحب على الأرض من شدة الحماس، اتجه مباشرة إلى رؤساء الوفد واستقبلهم بقبلات حارة، تعبر عن رغبته في استباق النتائج ومعرفة الأخبار، كان يقرأ الوجوه ويحلل الضحكات ويغتصب العيون لتبوح بما تحمله.

عندما عرف النتيجة النهائية تغيرت معالم وجهه، وبدأت شفتاه تهتز، وجف لسانه وأخيراً توقف عن الاستقبال، تنحى جانباً وجلس على الأرض وهو يضع رأسه بين كفيه، وكان يكرر: (لا حول ولا قوة إلا بالله).

بعد برهة يأسٍ قام وأعلن على الملأ أنه سوف يترك الحفرة ويهاجر إلى "الخابية" التي لا تبعد كثيراً، ومن أراد اللحاق به فليفعل.

كانت "الخابية" حفرة أيضاً، ولكنها أشد عمقاً وأكثر انقطاعاً عن الدنيا، وأقل اتصالاً بالآخرين، يعبر القادم إليها من خلال طريق ضيق حتى يصل إليها.

كانت وما زالت "الخابية" موقعاَ هاماَ للانقطاع عن الحياة والتفرغ للعبادة، لا يستطيع الوصول إليها إلا من أراد أن يختلي بنفسه، وهي تملك شروطاً قاسية يجب على من يأتي إليها التقيد بها، ومن أخلَّ بها فلا بد أن يُقذفَ به خارجها.

بعد هذا اليوم الحزين أصبحت الخابية أرض هجرة، يهاجر إليها أولئك الرجال الذين لا يريدون شيئاً، أحياناً يصحبون عوائلهم وأحياناً كثيرة يأتون بمفردهم، كذلك انقسمت الخابية إلى عزلتين واحدة للعزاب والأخرى للعوائل، ولكن لم تتسع الخابية إلى حد يجعلها تضاهي البلدات المجاورة كما تصورها البعض، واكتفت بعشرين رجلاً وعشر عوائل، هم حصيلة الناس الذين أرادوا أن يتجردوا من مواجهة التغيير الذي أصاب بلدان الصحراء نتيجة أموال النفط المزركشة، عندما أصبح تداولها عقبة عانى منها المستثمرون والمستهلكون، وأصبح قبولها والتداول بها هماً قائماً وجدلاً لا ينتهي.

حتى أتى ذلك اليوم الذي قررت فيه الخابية قطع الطريق على الحداثة، وعممت على ساكنيها التداول بالقطع المعدنية القديمة، وأكدت للجميع التمسك بالمبادئ، وعدم الإفلات الذي يؤدي في النهاية إلى ضياع الخابية.

كانت الأقراص السمراء المبلولة بمرق اللحم إن وجد وطبق المطزاز، الطعام المقترح الذي يجب أن يؤكل، أما الأرز والأطعمة الأخرى التي تتسلل على حين غرة، فيجب مقاطعتها لأنها تسعى إلى تخريب الخابية!. كانت هذه الأشياء وأشياء أخرى يؤكد عليها بالحفرة والخابية، ولكن الزمن يقف بالطريق، وعندما تحاول الحفرة والخابية التحرش بالزمن وتجابه التيارات المناخية القادمة، فإنها تجعل الحفرة والخابية تنجو بنفسها أحياناً خوفاً من الدهس.

***

حتى الثاني والثلاثين من الوسم وما زال صياح يذهب بنوقه إلى المراعي المجاورة، ويتحين الفرصة المناسبة لالتئام السوق، كان ينظر إلى السماء دائماً ويخمِّن كثيراً.

قال ذات مرة وهو يرعى النوق بعد إطلالة قصيرة إلى السماء: (الله العالم إنها تدوم حتى يطلع الوسم). كان يقول هذا والسماء تعطي الأرض بكرم.

أحس صياح بأن المؤونة بدأت تنفد، والدريهمات القليلة التي يحتفظ بها ويربطها في قطعة قماش بالية ويشدها على بطنه بحزام جلدي، بدأت تتناقص.

عند هذا الحد بدأ الاضطراب النفسي، وبدأت تصرفاته تأخذ شكلاً من أشكال الانفعالات، أصبحت طويلة تلحظ هذا وتلحظ أيضاً ذلك الصمت الطويل الذي لا ينقطع عندما بدأ يمارسه باستمرار.

في المرعى هبت في رأسه فكرة احتلت تفكيره وأصبحت تراوده طيلة النهار.

كان يفكر بأن المدينة الكبيرة التي تبعد أياماً على ظهور الإبل، لا بد أنها تفتقر للجمال، وأن السوق فيها أفضل كثيراً من سوق الحفرة، وماذا يعني لو ذهب بها هناك؟ لعل وعسى أن يوافق هذا السوق الكبير وهو مشتاق لنوقه، عندها سوف يبيع بما يريد ويفرض السعر المناسب، وتكون أيضاً فرصة مناسبة لإعادة الذكريات القديمة، عندما كان أهل الحفرة يسافرون إلى المناطق البعيدة ويزاولون الترحال، ذلك كان في الزمن الأول، إنها ذكريات جميلة لا بد من إعادتها، ولا بد –إذن- من ممارسة الترحال القديم، كان يفكر بفوائد عديدة وخاصة تلك الفائدة العظيمة التي تذكر عن الأسفار وأهميتها، إن الإنسان يجد نفسه في السفر، وإن الأسفار فرصة ذهبية لممارسة الهمة واختبارها، وهل هي ما زالت أم إن السنين العاتية قامت بهزيمتها؟ ثم إن السفر التجاري هو الوسيلة الجميلة التي يستطيع بها الإنسان أن يزيد من دخله، إنها ذات حسنيين، كلها مبررات يدعم بها فكرته الضالة التي تقف خلفها أسباب رئيسة اسمها الهدام بكل تفاصيلها، كان يحتاج إلى زمن هروب لعله يفتح مساحات جديدة للتنفس من تلك الأوهام الكثيرة، التي كانت تزخر بها الحفرة والمختلطة بالرطوبة العالية والأجواء المبعثرة، التي تجعل الإنسان يعيش في كوخ صغير لا يستطيع أن يمد رجليه كاملة.

في العودة أخبر زوجته بالأمر وأمرها أن تجهز له لوازم الرحلة، لأنه سيغادر قبل شروق الشمس (الثاية والزهاب وجميع الأواني يجب أن تكون في خرج الناقة).

***

في صباح الثالث والثلاثين من الوسم، وتحت وطأة المطر، غادر صياح متجهاً جنوباً إلى المدينة الكبيرة، أمر زوجته إذا احتاجت إلى شيء أن تطلبه من أحد رفاقه الأربعة فقط ولا أحد غيرهم.

صاح للإبل وهو يركب الملحاء، بدأت القافلة تتخذ مواقعها بالفطرة التي فطرت عليها، القعدة بالمقدمة وخلفها أكبر النوق سناً، ثم تأتي بقية النوق حسب الأهمية.

النظام واحد والمشية عسكرية والقيادة منتخبة والقرار قرار المصلحة، هكذا كانت النوق تنظِّم نفسها ولا تحتاج إلى المعونة؛ لأنها عرفت منذ وقت مبكر والإنسان يجرب ومازال يجرب وستنفجر الأرض يوماً ما وهو ما زال يجرب ويشاغب أيضاً، ولا يدرك أن المصلحة فوق الجميع كما عرفتها النوق، لذلك سيبقى الشغب وستستمر الحفرة تبحث عنه.

عندما يعود أحد يجب الانتظار، وهكذا كان الناس عندما ينتظرون العائدين من هناك.

قبل هذا الموعد علم الناس أن الطيور المهاجرة سوف تعود هذا اليوم وهي مخفورة، جاءت الأخبار مع الرجال الذين يسكنون بالضاحية الشمالية، بعد ضفة الوادي الملتف بمسيرة يوم واحد، قال رجل منهم وهو يصيح بأعلى صوته على الطريق العام الذي نصبت عليه خيام الناس: (اسمعوا يا أهل الحفرة ترى مجانينكم ياصلون باكر معززين مكرمين لولا الجروح والأورام اللي بأقدامهم كان قبل تغيب شمس اليوم وهم عندكم، الحاضر يبلغ الغايب، اللهم إني بلغت).

كان الصلوحي كبير الضاحية الشمالية والمسماة "عيون الملح" يعرف تمام المعرفة أن هؤلاء مجانين الحفرة، وكان أيضاً يعرفهم بالاسم واحداً واحداً.

عندما حُمِلوا إليه وهم متعبون قابلهم على مشارف "عيون الملح"، مجموعة من الرجال وهم في طريقهم إلى ضاحيتهم، عندما التقى أبو صالح بهم سألهم وقال: (وش حنا من قرى الشام يا رجال؟)، استغرب الجميع هذا السؤال، وتأكدوا أنهم مجانين لأن هذا السؤال لا يمكن أن يسأله إنسان في عقله رقم صحيح، أين الشام من هذه المسافات الأزلية؟.

أحد الرجال حاول أن يتأكد من الملامح قبل أن يجيب عن هذا السؤال، تطلع إلى الوجوه وهو يرحب ترحيباً حاراً واستمر يرحب، وطلب منهم النزول هذه الليلة عنده وهو يحاول أن يتأكد، عندما عرفهم جميعاً أجاب عن سؤالهم قائلاً: (وصلتوا على خير هذي أول قرى الشام). كان الرجل يقول لهم هذا الكلام، وأبو صالح يحاول إخفاء شخصيته بالعباءة.

نجح الرجل باستدراجهم إلى مقر الصلوحي، عندما وافق أبو صالح على النزول عنده هذه الليلة، كان أبو صالح يحاول تطمين البقية من رفاقه أنه نجح بالوصول إلى الشام، وحاول أيضاً تبديد الرهبة التي انتابتهم خلال المواجهة مع هؤلاء الرجال.

سار الجميع بصعوبة خلف الرجل حتى وصلوا إلى مقر الصلوحي، أخبره الرجل بأن هؤلاء مجانين الحفرة، وأنهم ضالون ويجب مساعدتهم، وبإشارة خفيفة عرف الصلوحي جميع الأهداف، وعرف أيضاً أن هذا العملاق هو أبو صالح مشاغب الحفرة المعروف، وأن الجميع ثلة من الذين تبعثرت أرقامهم لا يستطيعون ترتيبها جيداً.

بعد يومين من الضيافة، وبالتحديد لما التأمت جروحهم، بعث الصلوحي رجلاً يبشر الحفرة بأن رجالهم بخير وفي الغد يأتون.

بدأ الصلوحي يقنع الطيور بأنهم في بداية الشام، وأن الشام الحقيقية تبعد مسافات طويلة، ولا بد من حملهم على ظهور الإبل إليها، وافق كبيرهم على هذا الأمر ولكن بدون مقابل.

في اليوم الموعود، حُملوا على ظهور الإبل، ووضعوا في وسط الخروج التي توضع على جانبي الناقة، حملتهم الإبل بعدما ربطوا ربطاً جيداً وسمح لرؤوسهم وأيديهم بالحرية، قال أبو صالح بصوت يسمعه الجميع: (ولت أيام الحفرة إلى يوم الدين) إلى الآن والعير تدخل الحفرة بسلام دون عوائق تذكر، ما عدا بعض الصيحات التي يطلقها أبو صالح أحياناً؛ لأن الشوم الذي بيده يسقط على الأرض عندما كان يداعب به الصخور الكبيرة التي يمرون بالقرب منها، وأصبح الجميع يحلمون بشام سعيدة، عندما شاهدوا مشارف الحفرة.

لأول مرة تضحك الحفرة بهذه الطريقة عندما شاهدت هذا المنظر الجميل، واستمرت الحفرة تضحك زمناً طويلاً.

صعق أبو صالح صعقة شديدة عندما فوجئ بالناس الذين يعرفهم معرفة جيدة، وأدرك أنه عاد للحفرة وأصبح يبتلع الهزيمة بشدة، وعبر عنها عندما بدأ يضرب الناس بعصاه الطويلة وهو داخل الكيس المربوط جيداً، حاول النهوض ولكنه باء بالخيبة، عندما يقترب الناس من العير يهربون بسرعة خوفاً من ذلك الشوم الطويل الذي بدأ يلوح به كسيف بتار.

أخيراً بدأ يلعن الناس جميعاً: (ويلعن الديد الذي غذاهم) في وسط الطريق العام بدأ الاستلام والتسليم، وأبو صالح لا يهين ولا يستكين ويلعن الصلوحي وعيون الملح.

بعد مضي فترة من هذا اليوم أخذ أبو صالح يترصد للصلوحي في أسواق الحفرة للإيقاع به، ولكن الصلوحي قضى سنوات من عمره لا يأتي خوفاً من هذا المصير الأسود.

أما تركية الحبطاء فإنها مضت سنوات لم تشاهد في طرقات الحفرة أو عند أبواب المساجد، كان الناس يتساءلون عن مصيرها ولكن بدون إجابة محددة.

***

في صباح الرابع والثلاثين هبت رياح التغيير وبدأت الأرض تمتص رطوبتها بسرعة غريبة، وأصبح الناس يشمون روائح جديدة بدأت تنتشر في المكان، بدأ الناس وكأنهم يريدون

قول شيء ما، حتى الأطفال بدؤوا يشاهدون السماء، وينظرون إلى تلك السحب وهي تغادر، الشمس ترسل أشعة ذهبية عندما اتخذت موقعاً استراتيجياً بالسماء.

جميع العمران الطيني المتهدم أصبح يشاهد من بعد وهو يقع في وسط الصحراء، كانت القلوب والأنفس تدرك جيداً مدى الأضرار والخسائر، وأصبحت تدرك أن هناك عملاً ما يجب القيام به بعد زوال الغشاوة. بدؤوا ينظرون للعودة وهي تقترب منهم، وأصبحوا في شوق إلى تحية تلك الطرق المعوجة والأسواق الكبيرة، عندما تمتزج بأصوات البقاء التي تحارب الزمن وتسعى إلى تسجيل نقاط مهمة، تضاف إلى ما تبقى من محصول أجرد وأجرب، يُطلى بالقطران لعله يفعل شيئاً مفيداً، يساعد على طرد الشبح الأزلي الذي يتفوه به الأموات.

عندما ينظر الناس إلى السماء مرة واحدة، ينظرون أيضاً إلى الأرض مرتين لأنها البداية والنهاية المحظوظ من الناس من يفوز بالأيام السعيدة، وإن التعاسة طريق يجب المرور فوقه لأن الصحراء دائماً ما تمتلئ طرقاتها بالأسى المؤبد الذي ينتهي بالجنة السماوية، عندما يحسِّن المرء ألفاظه وينظر إلى خالقه نظرةً صادقةً يعبر بها عن مآله الأبدي.

بالنسبة للحياة الجديدة التي أتى بها النفط، فإنهم قليلاً ما يسكتون عنها ويراقبونها بحذر شديد مكتفين بما يؤكل منها فقط، لأن الأشياء الأخرى تساعد على التشويش.

استمرت الحفرة تقاوم وتقاوم بشدة وتفضل أن تبقى صحراوية وتمارس تعاليم الصحراء بلا انقطاع، عندما يستعمل الناس الأشياء الجديدة فإنهم يستعملونها مرغمين وقلوبهم تتطلع إلى أشيائهم القديمة، واستمروا سنين طويلة يحنون إليها ويتذكرونها جيداً، ولكن ماذا يعملون بتلك القوة الغاشمة "قوة النفط" التي دخلت الحفرة مع جميع أبوابها، ما عدا البوابة الغربية التي تفتح على الخابية وما جاورها؛ لأنها تمد الحفرة بما تحتاجه من الماضي، وخاصة ذلك البطيخ الليموني الذي نضج كثيراً عندما يربطونه بخوص النخل جيداً خوفاً عليه من الانفجار، حاول الكثير من الناس محاولات مستميتة التعامل مع الماضي ولكن بشق الأنفس.

حامد القرطاس تخالفت عليه الأشياء، وأصبح لا يستطيع أن يميز بينها، كل الجديد مرفوض ولا يجب على الناس استعماله؛ لأنه من أشياء الشيطان الذي يغوي الناس بها، حاول الهجوم على تلك الساعات التي يربطها الناس بأيديهم، وألغى التعامل أو السلام على من يضعونها بأيديهم، ولكن تلك المدارس الحديثة التي تغذي أفكار الناس وتجعلهم يلبسونها صارت عقبة تقف في طريقه، ولا تجعل الناس يصدقونه ما عدا بعض الذين بقوا على عهدهم عندما يزاولون الماضي بحماس شديد، ويوصدون أبوابهم كلما هبت ريح جديدة لم يعتادوا على شمها.

استمرت الحفرة سنين طويلة ترعى النصفين وتراهن أحياناً على إحداهما، ولكن عندما تأتي مدرسة بنات وتسكن في الحفرة، فهذه مشكلة عويصة شقت عصا الطاعة؛ لأن هذه المدارس سوف تصنع بناتاً أنصاف عاريات، ولا يستطيع حامد القرطاس أن يشاهد هذه الأشكال وهي تسير بطرقات الحفرة، لذلك أصبح لديه قناعة تامة بأن الحفرة فسدت ولا تصلح أن تكون مكاناً للإقامة والخابية أفضل منها بكثير، ولو حاولت الرياح الجديدة أن تجتاز الخابية، فلا بد من استعمال السلاح حتى الرمق الأخير.

الفصل الثاني عشر

في اليوم الخامس والثلاثين من الوسم، استمرت الرياح الجديدة تمارس نشاطها وتعمل على تجفيف الأَرض، وأصبح هذا اليوم أجمل أيام الهدام سمعة.

في الوادي الملتف بدأت السيول والفيضانات تنحسر وينخفض منسوبها بسرعة، واستمرت الأرض تدفع بألوانها الخضراء وأزهارها الملونة .

الأستاذ كاكي لا يستطيع أن يصدق ما شاهده عندما تحولت الصحراء بقوة وسرعة إلى رياض خضراء، جميع الرمال والصخور العالية والأودية الكثيرة والأراضي الشاسعة الجافة والمخيفة تحولت إلى شيء آخر.

حتى الوجوه البائسة بدأت تعطي لمحات رطبة على طول ضفة الوادي الملتف،كان الأستاذ كاكي يشاهد ويسمع أشياء كثيرة وجديدة لم يسمعها من قبل عندما كان بصحبة الأستاذ عبدالله الحمود. في ظهيرة هذا اليوم السعيد، وعلى طول المسافة الممتدة، كانا ساكتين يلاحظان ويرقبان بدون كلام، أصوات الحيوانات المبحوحة، تغيرت وأصبحت غنائية، وكلها تدل على أنها ترغب في مزاولة الجنس، وحكايات الناس أُدخِل عليها عبارات جديدة ترغب في ممارسة الجنس أيضاً، كل الرجال الذين شاهدهم في الطرقات وعلى طول ضفة الوادي، توحي حركاتهم وتصرفاتهم بالجماع والتكاثر والغناء الجنسي أيضاً.

في حكاياتهم يعتقدون أن القوة الجنسية مقدرة فذة يتمتع بها أولئك الرجال الذين يجامعون زوجاتهم الأربع في ليلة واحدة، والحكايات كثيرة عن أناس فعلوا هذا ويذكرونهم بالاسم أيضاً، وتتوالى الحكايات العظيمة والمقدرة الفذة والتباهي بمزاولة هذه العادة، ولكن بسرية تامة خوفاً من عين الحسود التي تصيب بدقة.

السمن والأقط والفقع (الكمأة) والحليب أيضاً، كلها بالطريق ويجب على الناس تنظيف أحشائهم استعداداً للخير القادم.

أصبح الأستاذ كاكي يراقب تلك العيون التي تضحك، حاول أن يقارن بين هذه العيون الآن، والعيون الكئيبة التي شاهدها أول مرة عندما قدم إلى الحفرة.

سأل الأستاذ عبدالله سؤالاً فرض نفسه، قال: كيف يضحك الناس والسعادة بادية على وجوههم وهم يعرفون أن بيوتهم تهدمت؟.

قال الأستاذ عبدالله: إن البطون يا أستاذ أهم من الممتلكات في الصحراء، يخافون من الجوع، أما تلك الممتلكات الطينية فيمكن إصلاحها وإعادتها مرة ثانية، ولكن الطعام فرصة

نادرة يصعب تحقيقها، لذلك تشاهدهم سعداء بهذه الطريقة. سأل سؤالاً آخر وقال: وهل الناس عندكم لا يجامعون نساءهم إلا في وقت الربيع؟

- هذا السؤال لا توجد عندي إجابته، ولكن أذكر أن الإبل تتحرش بإناثها في مثل هذه الأيام.

- أعتقد يا أستاذ عبدالله أن التكاثر بالصحراء مشروط بتوافر الغذاء، أليس كذلك؟

- وأكثر من ذلك، والغناء والرقص أيضاً، أما التزاوج وعقود النكاح، فإنها على قدم وساق، وعندما لا يأتي المطر فإن الطلاق على أشده وتكثر الأصوات المبحوحة أيضا.

واصل الرجلان صمتهما مرة ثانية مكتفِيَيْن بمشاهدة الكائنات الحية التي تعبر الطريق الممتد على ضفة الوادي، ولكن يقطع صمتهما أحياناً تلك النباتات الغريبة التي يشاهدانها على الطريق، فيتوقفان ويتداولان الحديث عن سر تلك المخلوقات الجميلة التي تظهر بالصحراء عندما يكون المناخ ملائماً.

توقفا مرة بعد طول صمت عندما رغب الأستاذ كاكي أن يستوضح رأي الأستاذ عبدالله عن الأنباء ليلة البارحة، التي سمعها من المذياع الخاص به.

قال: أنت سمعت يا أستاذ عبدالله الأنباء ليلة البارحة؟

- نعم سمعتها ولكني غير مبالٍ بما أسمعه بعد الهزيمة.

- أعتقد أنها هزيمة أخرى قادمة يريدون تحقيقها.

- ربما، ووهم كبير يحاصرنا من كل زاوية أيضاً.

- وهم! وهل تتصور أن هناك وهماً؟

- وهم الوحدة الذي ينادون به دائماً، وخاصة عندما ينطلق من تلك الأفواه المهزومة التي ما فتئت تنادي به، أتعرف لماذا؟

- لا أعرف بالتمام، ولكنني أعتقد أنها شعارات كبيرة يخفون وراءها هزائمهم الكبيرة.

- بالضبط كما تصورتها يا أستاذ، كيف تتصور وحدة شاملة لصحراء عجزت أن تتوحد مع نفسها؟ وتقول للناس هذه انتصاراتي وإلى الأمام دائماً. ثم أردف قائلاً:

- أتعرف ما معنى الوحدة الحقيقية التي يجب أن تكون؟

- لا أتصور معالمها الآن.

- إن الوحدة الحقيقية هي مجموعة من الانتصارات تضاف إلى بعضها، لتكون في النهاية انتصاراً عظيماً يأخذ مكانته الدولية بالقوة، أما ما نشاهده اليوم فإنها هزائم متعددة يريدون ضمها مع بعض لتشكيل هزيمة كبرى تؤدي إلى الافتراق والقطيعة.

- متي تعتقد أن الصحراء بدأت تأخذ طريقاً نحو الانتصار؟

- أعتقد أن هذا يأتي عندما تقوم الصحراء بتفكيك عقليتها والنظر إلى جميع أشيائها عن قرب، وبصورة محايدة وبعيدة عن الأغراض والأهواء، عند هذا الحد تستطيع أن تقول: إن الصحراء بدأت تعمل.

- ما أصعب ما تقول يا أستاذ عبدالله! إن ما تقوله يؤدي إلى خيبة أمل.

هذا ما فعلته الشعوب قبلنا، لم لا نفعله نحن؟ وخاصة أننا أصحاب رسالة وديننا الحنيف يحث على هذا، وهل للشعوب الأخرى دين يقول هذا؟

- فعلاً يا أستاذ عبدالله أعطيت كل شيء، دين وعقل ومقومات كثيرة، ولكن لا أعرف لماذا الصحراء تمتنع؟ واصل الأستاذ عبدالله حديثه قائلاً: الخطيئة خطيئة الشعوب، والهزيمة صنعتها عقولهم وزعامات خذلتها عقول الجماهير الغبية، التي ترغمها على دخول المعارك الخاسرة.

إن شعوب الصحراء الكبيرة تعشق الهزيمة وتدافع عنها بكل قوة، ولا أرى أنها صنعت شيئاً تفاخر به غير هذه المفرقات الانتحارية التي تربطها على خواصرها، ومع هذا لا بد من الهجرة اليوم أو غداً إلى أرض لا توجد بها صحراء قاحلة، سأغادر الصحراء بدون رجعة.

الهجرة يا أستاذ عبدالله فكرة حضارية متطورة، يقوم بها أولئك الذين يفككون عقولهم، ويشاهدون الأخطاء المزمنة على حقيقتها، ولا يستطيعون أن يبوحوا بها لأحد.

***

في بداية عصر هذا اليوم، كانت الأجواء تغري بالنزهة، السماء صافية نوعاً ما، ما عدا تلك القطع الصغيرة التي اتخذت أشكالاً دائرية والشمس تدفع بموجات ذهبية، الهواء هادئ ويداعب الوجنتين، والزهور المنتثرة تريد أن تلعب وتغري الناس بملابسها الجميلة. زهرة

الخزمي كسبت السبق على جاراتها، وحصدت الجائزة وأصبحت ملكة جمال بلا منازع، الشويهات التي ترعى في مواقع متفرقة لا تصدق ما يحدث لها، أكلت أشياء ثمينة من تلك الزهور وبدأت تجرب حظها باللعب، بعد سنوات عجاف وهبوط عام في مستوى الصحة، كما أنها أعطت مواليد جُدُداً ولبناً صافياً.

الرعاة الموجودون في البيداء بدؤوا يراهنون على حياة سعيدة، وروائح القهوة المطعمة بالهال نفثتها أفواههم، الناس المنتشرون على طول الطريق المؤدي للمخيمات، جلسوا على شكل أحزمة دائرية وهم يتآمرون على لحم الماعز، وأنه أطيب شيء يؤكل في هذه الأجواء الجميلة التي لا يمكن تركها تذهب سدى، الكثير منهم نفذ واشترى عنـزاً، أما البقية فإنهم تكاثروا على أنفسهم وبطونهم، هذا اللحم العطري لذلك فشلت مفاوضات التضامن.

طاباش أغرته أيضاً هذه العصرية، ورغب أن يتجول في محيط البرية ويمارس لذتين معاً، شم النسيم والغطرسة المزمنة، وسوف تكون جميلة عندما يمتطي سيارته الفورد الجديدة، وهذا السائق المرعب عندما يراه الناس هكذا، فإن السمعة تصل إلى أوج مجدها.

لبس طاباش زينته بالكامل، ولبس العباءة البيضاء الغالية الثمن والغترة الحمراء الجديدة التي تشبه الطائر المغرد فوق رأسه، وتعطر بدهن العود والبخور الفاخر، ووضع السواك في فمه ثم ركب في غمارة السيارة ووضع يده على الباب، ودحمان المدلل الذي لبس الطاقية الذهبية ركب أيضاً بجانب والده، أما بقية الأولاد من الزوجات المعذبات، فإنهم ركبوا في صندوق السيارة الخلفي وعلامات الأسى والحرمان تبدو على محياهم.

في البداية أمر السائق أن يتخذ الطريق الغربي الذي يمر من مزارع وضواحي الحفرة، شاهده الفلاحون والكثير منهم سلم بحفاوة شديدة، وقبلوا رأسه أيضاً عندما يقف أحياناً ليسأل البعض عن النخل والأولاد والصحة بوجه عام، ومدى الأضرار التي أصابتهم.

أمر السائق أن ينحني جنوباً إلى الفياض الخصبة التي تحيط بالطعوس الرملية، وجد بعض الناس هناك وهم يحصدون العشب ويجمعونه تمهيداً لبيعه في أسواق الحفرة.

عندما تأكد الناس هناك أن هذا طاباش أصابهم الذعر والخوف، ولكن عندما سألهم عن العشب والكمية التي يجنونها وهل هي مربحة أم لا؟

اطمأنوا. قبل أن يغادرهم، أمر أحد الرجال أن يجلب له ما يحصده يومياً لأن الأبقار التي يملكها تحتاج لمثل هذه النباتات، واللبن يكون لذيذاً ورائحته زكية، كما أن الزبد يتضاعف عدة مرات.

عندما غادر كان الناس يلتفتون إليه ويشاهدون السيارة وهي تبتعد، قالوا كلمات سرية تعبر عن الحقد والكراهية، ليس بسبب الممارسات التي يمارسها مع الناس، ولكن لما يتمتع

به من إمكانات كبيرة تجعله يأكل ما يريد ويركب ما يريد ويستطيع شم الحياة بحرية، هكذا كان الناس ينظرون إليه وهم يحزمون الحجارة على بطونهم لخفة وزنهم وإيهام البطون بالتخمة.

بعدها أمر طاباش السائق بالانحراف شرقاً إلى الطريق المؤدي إلى المخيمات الكثيرة، وإلى الطريق العام الذي يجلس الناس على جانبيه، على طول الطريق الممتد كان طاباش يمارس الغطرسة، أحياناً ينظر إلى الناس بعين واحدة ويبدأ باللعب بالمسواك في فمه، وعندما يتأكد أن الناس ينظرون إليه يعتريه نوع من الارتياح النفسي، وعندما يشاهد بعض الرجال المرغوب فيهم، فإنه يأمر السائق بالتوقف أمامهم، ويهرول الجميع للسلام عليه وأحياناً تقبيل رأسه، بعد ذلك يسأل عن الحال والأحوال ويطمئن الجميع أنها أيام قليلة وسوف يعودون إلى دورهم، كان يقول هذا الكلام وكأنه هو الذي أمر السماء أن تفعل ما فعلته، عندما يشاهد الرجال وهم ينظرون إليه هكذا، يخرج المروحة اليدوية ويبدأ في تحريكها بيده لعلها تعمل على تلطيف المناخ الذي بدأ يشعر به.

مرة شاهد طاباش العم أبا صالح وهو يسير على جانب الطريق، أمر السائق أن يتوقف بجانبه وأخرج طاباش رأسه ونادى على العم أبي صالح، توقف أبو صالح بعنف وبدون رغبة وضع طرف الشوم تحت ذقنه واتكأ عليه وهو يشاهد مرة، ومرة أخرى ينظر إلى جانبي الطريق بلا اهتمام، دليلاً على عدم الاكتراث بهذا الطاباش المخيف.

سأل طاباش بعد السلام الذي رد عليه أبو صالح بأسلوب عدواني، قال طاباش: (وشلون أهل الشام يا عبدالله؟).

عرف أبو صالح أن طاباش يسخر منه عندما رد عليه أبو صالح قائلاً: (بخير طال عمرك قبل ما نشوف رأس الشياطين). ضحك طاباش ووضع طرف الغترة الحمراء على فمه خوفاً من إثارة أبي صالح، أخيراً أخرج طاباش من تحت رجليه كيساً مملوءاً بالتمر الجاف من نوع السكري، وفتحه وأخذ منه ملءَ كفه وأعطاه أبا صالح.

أخذه أبو صالح بعدما حاول أن يمتنع ولكن سيطر عليه الخوف. تحركت السيارة وواصل أبو صالح مشيته العسكرية التي تدل على الغضب الشديد، عندما فتح كفه وشاهد تلك التمرات قال: (يفكر أننا أطفال أو رضعان يهدي لنا يبيس). أخذ واحدة وأكلها بعنف وأخرج نواتها وقذف بها ناحية السيارة، وبصق بصقة كبيرة انحرفت إلى صدره ولعن جميع السيارات والراكبين بها .

في الطريق العام شاهد طاباش الأخوين "الجرادة وقنيفذ" وهما يتجاوزان الطريق كأرنبين، أمر السائق أن يتوقف وصاح عليهما. عندها وقفا أمامه وردا عليه السلام، سألهما عن والدهما ووالدتهما وعن أوضاعهما العامة قال: (هاه عساكم إن شاء الله تركتو المخزى.. ترى يا عيالي التتن ما يجوز.. والله الله بالصلاة مع الجماعة).

كان الجرادة وقنيفذ يلزمان الصمت والنار تشتعل في صدريهما، بعدما غادر طاباش الموقع طلب الجرادة من أخيه قنيفذ أن يسعفه بسيجارة ملفوفة لفاً جيداً، لإخماد الحريق الذي اندلع في صدره!.

انحرفت السيارة إلى الناحية الشمالية التي تؤدي إلى ضفة الوادي الملتف، عندما شاهد طاباش أبا شلهوب وهو يرعى ناقتين جرباوين مطليتين بالقطران.

من شدة الكيد والغطرسة أمر السائق أن يتوقف لعله يشفي صدره من هذا البدوي المعادي ولو بكلمتين، فسأل أبا شلهوب عن الحال والأحوال.

رد أبو شلهوب وهو يحاول ضبط النفس، سأل سؤالاً آخر عن الجرباوين وأحوالهما، أجابه أبو شلهوب، قال: (الحمد لله موزع الرزق على عباده).

بعد هذه الإجابة القصيرة التي تحمل معاني كثيرة، تخللها نظرات حادة من كلا الرجلين، واصل طاباش مسيرته إلى ضفة الوادي الملتف.

بين الزهور والأرض الخضراء تحلو الجلسة وتناول القهوة والشاي، لا بد أن يكون مكاناً مرتفعاً يشرف على جميع الأشياء من حوله، هذا المكان مناسب لولا أنه يبعد كثيراً عن ضفة الوادي، الأحسن من هذا وذاك أن تتقدم قليلاً فالأماكن تكون أحسن وأكثر ارتفاعاً، كان يقترح على السائق هذا الرأي عندما توقف في تلك الأرض.

بعد قليل من البحث والاختيار وجد ضالته، إنه المكان المطلوب بالتمام، يتميز بكل الأشياء المطلوبة، توقفت السيارة واندفع الأولاد ونزل دحمان المدلل بهدوء وغطرسة صغيرة لم تنم بعد، وتشابه ما يتمتع به والده، إنها غطرسة طاباشية صغيرة سوف تترعرع وتكبر مع الزمن لتصبح طاباش المستقبل، عندما يقوم بدور في تلك الحفرة التي تنمي مواهبه وترعاها لتصبح جاهزة للطبع وتنفيذ أوامرها المطلوبة، وخاصة عندما تتمتع بملامح الصحراء ونفسية الضب الغاشمة التي تعاقب المذنبين باستعمال الأذناب الشوكية الحادة، حتى يصير العقاب أشد وطأة وأكثر تمثيلاً.

صاح طاباش على أولاده من الدرجة الثانية، وطلب منهم أن يجمعوا حطب الرمث الشهير والطيب الرائحة لصنع القهوة والشاي، لأن عمل القهوة على حطب مثل هذا يعطيها نكهة خاصة تجعل الإنسان يتناول الفنجان وهو يفكر.

أما دحمان فإنه لازم والده وانطلقا معاً يتأملان هذه الرياض الجميلة، وطاباش يشرح له جميع المعلومات التي تختص بالصحراء وأسرارها وطريقتها السرية في معاملة الأحياء، لأن الذي يعرف خبايا الأمور لا بد أن يتعلم الطريقة المناسبة للحياة، كان يشرح ودحمان يحاول أن يفهم، ولكن بصعوبة فوجئ طاباش عندما طلب منه دحمان أن يتعلم قيادة

السيارة، توقف قليلاً وبدأ ينظر إلى دحمان نظرات فيها أشياء مختلطة، قال دحمان: (أمي هيلة تقول لازم تعلم السواقة). وافق طاباش بعد تردد ولكن بشرط أن تتحسن الظروف لأن الأرض وتلك الأمطار لا تسمح لطفل صغير بسن دحمان أن يتعلم قيادة السيارات.

وافق دحمان ولكن على مضض، لأنه لا يستطيع أن ينتظر حتى تتحسن الأوضاع، عند احتساء القهوة الرمثية بدأ يفكر طاباش بالمواقع التي لم يمر عليها، بعد أن تذكر أن هناك موقعاً هاماً لا بد من المرور عليه، كانت الثكنة العسكرية التي تقع بالقرب من الطريق الجانبي، هذه الثكنة التي لا تعرف طاباش، جاءت منذ وقت قريب على إثر حركة الشغب التي قام بها الطلبة، إنها عبارة عن مجموعة صغيرة من المحاربين القدامى التي يعتمد عليها السلطان في كثير من المناسبات الحرجة، فكَّر طاباش أن يمر من أمامها ويستعرض مظهره ويجعل أهل الثكنة ينظرون إليه جيداً، ثم إن كبيرهم هذا المدعو "ابن شليويح" لا بد أن يعتاد على زيارة الحفرة والسلام عليهم وتقبيل أنوفهم أيضاً.

كل هذه الأشياء كان يفكر بها وهم في طريق العودة والشمس تودع صحراءها الرطبة الممطرة.

طلب من السائق أن يلتف حول المعسكر من جميع جوانبه، شاهد الجنود وهم لا يهتمون به، وشاهد أيضاً بعضهم وهم يدخنون السجائر، عند ذلك سجل نقطة مهمة ومؤاخذة يجب الاهتمام بها، طلب من السائق أن يعبر البوابة الرئيسة إلى داخل المعسكر، اعترض طريقهم الحارس الذي يحمل بندقية وبيده الأخرى سيجارة ورفض دخولهم، حاول طاباش أن يقنع الحارس بأنه أتى لأمر هام ويريد مقابلة ابن شليويح، ولكن الحارس أكد أن القائد غير موجود الآن داخل المعسكر، وبإمكانه الحضور في وقت آخر، أحس طاباش بأن الحارس لا يلقي له أهمية تناسب مكانته العظيمة، ولا يدري أيضاً بأن طاباش كان وراء الأسباب التي أدت إلى وجود الثكنة العسكرية، غضب طاباش وخرج عن السيطرة وضبط النفس وتحول إلى ديك رومي أثير.

طلب طاباش من الحارس الاقتراب أكثر، وعندما فعل أخرج يده من نافذة السيارة وهو ممسك بالمروحة اليدوية وضربه ضربتين على رأسه بتلك المروحة وهو يقول: (شرب الدخان ممنوع يا حمار).

خرج الجندي عن طوره واستشاط غضباً ونظر إلى طاباش نظرات غاضبة، أخيراً سحب باب السيارة بقوة وجذب طاباش وألقاه أرضاً.

حاول طاباش أن يستعيد اتزانه واستطاع الاشتباك مع الجندي، واشترك السائق والأولاد جميعهم، حتى دحمان شارك وبدأ يضرب الجندي من مؤخرته، تدخلت مجموعة من العسكريين في الاشتباك، وأصبح طاباش في موقف لا يحسد عليه، عندما صار كالكرة بين أيديهم، وأخيراً قام أحد الجنود بضرب طاباش على أنفه بعقب البندقية ضربة أفقدته

وعيه، وقد انكسر هذا الأنف الذي تعالى على الآخرين الضعفاء، كانت فرصة مناسبة لو أن أبا شلهوب حاضر ويرى هذا المشهد، ولكن كان يبعد كثيراً بصحبة الجرباوين اللتين ترعيان بصعوبة.

كاد طاباش أن يموت ولكن في الحياة بقية، بعد مضي أيام كثيرة تماثل للشفاء ولكن الأنف صار معوجاً، وأصبح درساً يتذكره دائماً وأبداً، وأصبح الناس أيضاً يتذكرون هذا الحدث زمناً طويلاً، ولكنه يعتبر هذا الدرس بداية دروس كثيرة سوف يتعلمها دحمان وإخوانه من الدرجة الثانية عندما يزاولون المهنة.

بعد يومين من الحادث شاهد الناس سيارة سوداء غريبة تدخل الحفرة لأول مرة وتتجه نحو المعسكر، بعدها فقد الناس الجنود الثلاثة الذين اشتركوا بالاشتباك ولم يعرف لهم طريق بعد ذلك، حاول الناس كثيراً معرفة مصيرهم ولكن بدون جدوى.

***

يتذكر الناس أيضاً تلك الحفلة الصاخبة التي أقامها الطلبة وأبو شلهوب وخشمان واستمرت حتى الصباح، قيل فيها كثير من الأشعار وموروست العرضات الصحراوية المبتهجة، وأكلت فيها ذبائح كثيرة وكمية كبيرة من أقراص الكليجاء التي تبرعت بها مضاوي بكل سخاء وكرم، توجت هذه الحفلة بحضور عبدالله القنار، ولكن جاء بعد وقت متأخر وشجعه الجميع على ممارسة المشية العسكرية المنتخبة، والجميع يزغردون وخشمان وأبو شلهوب يقرعون الطبول ويغنون هذه الأبيات:

نحمد الله جت على ما نتمنى من ولي العرش جزل الوهايب

***

حتى تمام الأربعين يوماً اختفت السحب وعاد الكثير من الناس إلى منازلهم، وبدأ سوق الحلال يزاول نشاطه، وقام الذين تهدمت بيوتهم بإعادة ترميمها وتضاعفت أموال البعيرصي على إثر المداينات الكثيرة والقروض المضاعفة على المزارعين، الذين وجدوها فرصة مناسبة لزراعة القمح على إثر هذه الأمطار الكثيرة.

وانتهت الهدام الأولى ومات الكثير من أبطالها، مات صياح ومات أبو شلهوب وطاباش أيضاً، وأصبح الناس ينتظرون هداماً أخرى ستأتي في سنة ما، ولكن جميعها تصب في منبع واحد، والحفرة باقية ترعى الجميع.

بعد مضي عقود أخرى وبالتحديد أثناء الهدام الأخيرة، كان الجدل يدور على أشده حول سؤال يقول: (هل يجب على المرأة أن تتحجب عن القمر؟).

سمع الشيخ العجوز الذي يجلس عند زاوية طريق وقد نسيه الناس جميعاً، كان يدعى "فهد القطوة" سمع بهذا السؤال ولكن بصعوبة، قام يهذي ويقول عبارة لا يفهمها الناس وهو يومئ بعصاه النحيل، كان يقول: (القمر صخرة تعكس ضوء الشمس) ثم قام وقال: (أيها المعذبون الجدد، يا أبناء المعذبين القدامى، أوقفوا زحف الرمال واقتلوا الصحراء أولاً).

تمت بحمد الله يوم السبت 21/4/1422هـ

هشيم الصحراء.

موسى البراهيم النقيدان

1. Cover
2. cover1.html
3. الهدام
4. الفصل الأول
5. الفصل الثاني
6. الفصل الثالث
7. الفصل الرابع
8. الفصل الخامس
9. الفصل السادس
10. الفصل السابع
11. الفصل الثامن
12. الفصل التاسع
13. الفصل العاشر
14. الفصل الحادي عشر
15. الفصل الثاني عشر
16. الغلاف الهدام الفصل الأول الفصل الثاني الفصل الثالث الفصل الرابع الفصل الخامس الفصل السادس الفصل السابع الفصل الثامن الفصل التاسع الفصل العاشر الفصل الحادي عشر الفصل الثاني عشر